عروس الأطلنطي

بيير بنوا

روايات الهلال

روائع القصص العال



حورية الأطلنطي

بقلم

بلير بنوا

مؤلف الرواية

● ولد بيير بنوا Pierre Benoit في فرنسا في سنة ١٨٨٦ وتجاوزت شهرته حدود فرنسا لاول مرة حين نشر روايته ذائعة الصيت التى عنوانها « الكونت فيليب » أو كينجز مارك .. ثم زادت شهرته تأصلا حين نشر معجزته الكبرى هذه « حورية الاطلنطى » فترجمت الى معظم لغات العالم الحية ودخل بعدها « بيير بنوا » مجمع الخالدين وهو الاكاديمية الفرنسية

وتوفى « بنوا » سنة ١٩٦٢ عن ستة وسبعين عاما



شخصيات الرواية

دى سانت افيت DE SAINT AVIT	ملازم فرنسى شاب
مورانج MORHANGE	نقيب فرنسى عالم وسيم
ابو جمة BOU-JEMA	دليلٌ عربى طيب القلب
اج EG أو الصغير بن الشيخ	من الطوارق
اتين لوميج LEMESGE	عالم فرنسى فى التاريخ
سباردك SPARDEK	قسيس من منشستر
الكونت كازيمير بيلوفسكى CASIMIR BIELOVSKY	من نبلاء فرنسا القدامى
انتينيا ANTINEA	ملكة وحورية الاطلنطى
تانيت TANT	وصيفة من النيجر
عجيبة سيدة	وصيفتان للملكة انتينيا
كليمنتين CLEMENTINE	غانية فرنسية



الفصل الأول

القائد الجديد

على مشارف الصحراء الكبرى ـ فى عهد الاحتلال الفرنسى للجزائر ـ فوجىء الملازم « أوليفييه » ومساعده الرقيب « شاتلان » وبقية الفرنسيين القلائل من رجال الحامية هناك بقرار وقع عليهم وقعا مزعجا ، فقد حملت اليهم الجريدة العسكرية نبأ تعيين النقيب « دى سانت أفيت » قائدا جديدا لمركزهم الامامى وقواته المتحركة فى الصحراء ، خلفا للقائد الذى انتقل منذ بضعة شهور الى رحمة الله

وليس فى تعيين قائد جديد ما ينبغى أن يثير الهم ، لان المركز الشاغر لابد من ان يشغله أحد ولو بعد حين .. ولكن سر هذا الضيق الذى استولى على الفرنسيين هناك يتصل عن كثب بالسمعة التى اكتنفت اسم ذلك القائد الجديد بالذات ، ولم يكن الملازم «أوليفييه » يعرف عن تفاصيلها شيئا ، وان كان قد استشعر جوها العام من أحاديث الضباط وصف الضباط

وكان طبيعيا أن يتطلع الملازم « أوليفييه » الى معرفة المزيد عن النقيب «سانت أفيت» قبل وصوله ، ولا سيما أنهما تخرجا فى دفعة واحدة .. بيد ان ذلك النقيب ظفر قبله بالترقية لما حصل عليه من انتصارات علمية وكشفية باهرة نشرتها المجلات التى تهتم بالجغرافيا وكشوفها وبعلم طبقات الارض فى مجاهل الصحراء

وبعد الحاح ، رضى الرقيب « شاتلان » العجوز ـ وهو محارب قديم فى ميادين افريقيا وله دراية بأحاديث المعسكرات فيها ـ أن يقص على الملازم « أوليفية » ما يعرفه عن سيرة ذلك النقب نقلا عن أحاديث مقاصف الضباط وصف الضباط التى يتناقلونها همسا :

ـ ترجع أول فكرة لدى عن ذلك النقيب الى سنوات قلائل عندما

كنت فى صفاقص ، وكان قائدنا فى سلاح الفرسان برتبة عقيد ، بيد انه بلغ هذه الرتبة من غير ان يتزوج ، ولذا كان يعنى عناية فائقة بمقصف الضباط لانه يتناول طعامه فيه ويقضى به معظم وقت فراغه .. ولذا كلفنى شخصيا بالاشراف على موائد ذلك المقصف بما فى ذلك المطبخ وقائمة الطعام والانبذة والمشتريات اللازمة لذلك كله، لما لى من خبرة طيبة بالحسابات وبالاطعمة وتقاليد الحفلات ، وما توسمه الجميع لدى من الامانة والحرص على النظافة والدقة . وذات ليلة حضر العقيد الى المقصف مهموما بشكل واضح ، فسكت الضباط على غير عادتهم حين يجلسون للطعام والقصف توجسا مما وراء ذلك التقطيب ، لانه فى الغالب يحمل اليهم نذيرا باخبار سيئة عن العمل ، أو عن الوطن ، او عن احد افرادهم . ولم يطل انتظارهم اذ قال العقيد بعد ان تأكد من اصغاء الجميع له :

ـ فى ساعة مبكرة من صباح غد أيها السادة ستصل الى هنا باخرة تقل بين ركابها النقيب «دى سانت افيت» فى طريقه الى عمله الجديد فى فريانا ..

وسكت الرقيب « شاتلان » قليلا ثم قال معلقا :

ـ وادركت بصفتى مكلفا بالمقصف ان على اعداد وجبة ممتازة وتقديم الشمبانيا الفاخرة فى الغد ، لان العادة فى حامية مدينة صفاقص ان يذهب الضابط لتحية كل ضابط يصل بالباخرة ، ويدعونه لقضاء سحابة اليوم فى المقصف معهم الى أن تقلع الباخرة به مرة اخرى ، وفى المقصف يتحفونه بطعام وشراب ، ويسمعون منه آخر احاديث الضباط والمجتمع فى أرض الوطن . ولكنى لاحظت ان الضباط ما أن سمعوا النبأ هذه المرة حتى بدت على وجوههم امارات الوجوم الشديد، وهم الذين كانوا يفرحون دواما بمثل ذلك الحادث الذى يبدد عنهم السأم ، فخطر لى ان الشمبانيا الفاخرة ستظل هذه المرة فى صناديقها. واستطرد العقيد موجها الحديث الى الضباط الواجمين .

ـ انا لا اريد ايها السادة أن افرض عليكم موقفا ، ولا اريد أن امنح تأييدى للاشاعات الكثيرة التى اكتنفت اسم النقيب « دى سانت افيت » ولا سيما انه ظفر بعدها بترقية استثنائية وانعم عليه بوسام رفيع ، مما قد يدل على ان هذه الشائعات بعيدة عن الصحة .. ولكن

هذا طبعا لا يكفى لالزامنا باظهار عواطف المودة والترحيب الحماسي لذلك النقيب مالم تكونوا مقتنعين باستحقاقه لهذه العواطف بصفة شخصية بعيدة عن الرسميات واحكامها ..

واعقب ذلك صمت ثقيل بين الضباط وضباط الصف ، وراحوا يتبادلون النظرات كانهم يتشاورون فيما ينبغى ان يفعلوا فى هذا الموقف الحرج . وبعد قليل قال احد الضباط المسنين وكانه يعبر عن راى المجموعة كلها :

ــ ابدأ يا سيدى العقيد بتوجيه الشكر اليك لمفاتحتنا فى هذا الموضوع .. وكلنا فى الواقع ندرك ما هى تلك الشائعات التى اشرت اليها بصدد النقيب « دى سانت أفيت » .. وأنا لم أندب نفسى للحديث الآن نيابة عن زملائى الا لأنى كنت اعمل فى باريس ــ قبل نقلى الى هنا ــ فى الادارة الجغرافية للجيش ، وعشت فى جو الزملاء المباشرين والرؤساء المباشرين للنقيب « دى سانت افيت » وايقنت من معاشرتهم أنهم رغم ما أعلن من براءته لايرون فيه رايا يسره او يكفل له ما ينبغى من الاحترام والثقة بشخصه

وعندئذ قال نقيب آخر :

ــ وأنا عملت فى وحدات افريقية ، واعرف ان الضباط هناك يرون فى النقيب « دى سانت أفيت » رايا شديد السوء ، وان كانوا يعترفون فى الوقت نفسه ان هذا الراى لا يقوم الا على ظنون وشبهات

فقال العقيد :

ــ فى هذه الحالة أيها السادة يسوغ لنا ان نمتنع عن الترحيب بذلك النقيب على مائدتنا .. وليس معنى هذا أننا ندينه بعد ان برأه رؤساؤه ، لكن معناه أننا لا نمنحه شرف تناول الطعام معنا بين مظاهر الاخاء . ولست احب ان انفرد بهذا القرار ولذا اريد ان اسألكم بحرية تامة : هل توافقون على السماح للنقيب « دى سانت افيت » بشرف الدعوة الاخوية الى مائدتكم أم لا ..

ثم شرع ينظر اليهم فردا فردا ليدلوا بآرائهم ، فكان كل واحد منهم يدلى برأيه فى دوره ، فاذا كل الآراء ضد هذه الدعوة الى الغداء ..

وظهرت بوادر الارتياح على وجه العقيد ، ولكنه لم يختم ذلك الموضوع ، بل انتقل الى نقطة اخرى :

ـ انتهينا ايها السادة من مرحلة واحدة فقط من هذه المشكلة .. فربما حضر النقيب « دى سانت أفيت » لزيارتنا فى المقصف من تلقاء نفسه بدلا من قضاء اليوم على الباخرة لخلو ذهنه من حقيقةموقفنا. وفى هذه الحالة سيكون الموقف حرجا جدا ، لذلك يجب ان يتوجه أليه أحدكم عندما ترسو الباخرة فى الميناء كى يحول دون حضوره الى هنا ! ..

ونظر الضباط بعضهم الى بعض فى عدم ارتياح ، وعندئذ قال العقيد بحزم :

ـ أعلم جيدا ان احدا منكم لن يتطوع لهذه المهمة الشائكة ، ولذا سأستخدم سلطتى وآمر احدكم بالذات للقيام بها ، وهو نقيب فى مثل رتبة النقيب « دى سانت أفيت » وحديث الترقى مثله ،وهو النقيب « جراندجان » .. وانا واثق كل الثقة بأنه سيبذل غاية جهده للقيام بهذه المهمة العسيرة بأقصى ما يمكن من الكياسة ..

ولم يسع ذلك النقيب الا الاذعان ، وتناول الجميع طعامهم فى صمت ..

وفى اليوم التالى ، جلس الضباط على مائدة الغداء قلقين فى انتظار عودة زميلهم من مهمته الحرجة التى طال غيابه فيها منذ الثامنة صباحا ـ وهى ساعة قيام الزورق من صفاقص الى الباخرة لركوب المسافرين ونزول القادمين ـ وعندما دخل كان مكفهر الوجه كأنه رأى شبحا او كان مشتركا فى تشييع جنازة مؤثرة . ولم يتكلم الا عندما سأله العقيد عما تم ، وعندئذ قال ان النقيب «دى سانت أفيت» أحسن استقباله وفهم الموقف بسرعة فوفر عليه الكلام ، وقال انه رتب نفسه على عدم مبارحة الباخرة هذا اليوم ، ثم دعانى فى ظرف وكياسة الى تناول كأس معه والسمر بعض الوقت ، وكأنه يريد ان يرفع الحرج عنى . وراح يسرى عنى ويفاتحنى فى أحاديث عادية عن أصدقاء مشتركين بيننا الى ان نسيت ما جئت من أجله تقريبا . وكان ظريفا ، انيقا ، هادئا ، مهذبا . وترك فى نفسى احساسا بان كل ما قيل عنه لا يمكن أن يكون صحيحا ، لان هذا الانسان الحساس المرهف المثقف لا يمكن ان يكون مجرما قاتلا .. انى ارفض منذ الآن الاشتراك فى مناصبته العداء او مقاطعته .. !

وساد الوجوم ، وتناول الجميع الطعام فى صمت ثقيل كئيب ، ولم تتبدد هذه الكآبة الا عندما سمعنا صفير الباخرة مؤذنا بتحركها من جديد . ومنذ ذلك اليوم والضباط فى صفاقص يتحاشون الخوض فى موضوع النقيب « دى سانت أفيت » تجنبا تاما ..

***

وكانت هذه هى الصورة التى قدم فى اطارها الرقيب «شاتلان» النقيب « دى سانت افيت » للملازم «اوليفييه» عشية وصوله المفاجىء الى مركز قيادة الوحدة على مشارف الصحراء الكبرى



صفحة جديدة

وما أن وصل النقيب « دى سانت أفيت » حتى عمل بعد فتـــرة وجيزة على التقريب بينه وبين الملازم « أوليفييه » فى دماثة ورقـــة بالفتين ، قائلا انهما من خريجى دفعة واحدة ولذا فلا لزوم للتكليف والرسميات فيما بينهما ..

وكان وصوله على ظهر هجين لايحمل معه الا ملابس قليلة جـــدا والاسلحة الضرورية من بيضاء ونارية ، اما بقية امتعته الحقيقية فلم تصل الا مع القافلة التى تحمل المئونة الى المركز الامامى مرة كل بضعة أسابيع ، فوصلت بعد قدومه فعلا بأسبوعين . وكان واضحا من أستياء الحمالين ان الصناديق الكبيرة ثقيلة الحمل جدا . وتركه الملازم يستقبل امتعته ، وفرغ لتصفح الرسائل والمطبوعات التى وصلت باسمه مع القافلة وهو جالس الى مكتبه ..

وبعد قليل دخل عليه النقيب وابدى دهشته حين رأى آخر عدد من مجلة جمعية برلين الجغرافية بين يديه ، فقال له الملازم :

ـ انهم يوافوننى بها لانى انشر لديهم ابحاثى عن طبقات الارض فى بعض شعاب الصحراء ..

ـ هذا عظيم جدا ، أرجو أن تسمح لى بالاستفادة من قراءتها ..

ـ بكل سرور ..

ـ وما عندى من مطبوعات تحت أمرك ، وان كان معظم ماكتبـــه الاقدمون من الرومان والاغريق والعرب عن جغرافية افريقيا وتاريخها ورحلاتها .. والآن ارجوك ان تأتى معى لتساعدنى فى ترتيب امتعتى وكتبى ، ولتختار منها بنفسك ما يروقك

وكانت الصناديق تضم آلات جغرافية دقيقة بقدر ما يسمح بذلك النقل على ظهور القوافل ومنظار مقرب وبوصلة وما الى ذلك.. كما تضم أيضا مكتبة جغرافية ثمينة بها كتب نادرة حقا تعتبر كنزا لمن يريد كتابة بحوث عن جغرافية الاقدمين ، ولكنها فى حجرة ضابط من سلاح الفرسان تعتبر شيئا خارقا لكل مألوف.. وبدا عليه السرور من امارات الدهشة والاعجاب التى ارتسمت على وجه زميله الملازم ، ولكنه لم يحاول التخفيف من حدة فضوله فى صدد غرضه من هذه المكتبة العلمية العجيبة

ورأى الملازم ايضا بين الامتعة مجلدا ضخما ثبت به قفل مهيب ، تبين له فيما بعد انه دفتر مذكراته الخاصة ، وقد رآه ــ فى اكثر من مناسبة بعد ذلك ــ يدون فيه خواطره

وكان اهم ما يشغل القائد الجديد ــ فيما عدا تدوين مذكراتهوهو بمفرده ــ أن يركب الهجين ويخرج الى البطاح المجاورة ذات الرمل الاحمر ، فى رحلات أخذت تزداد مدتها يوما بعد يوم ، ويعود منها وهو فى حالة اغتباط عظيم ، كأنه كان مدعوا الى حفل من الموسيقى والشعر والغناء فى حديقة غناء ، مما أحاطه بالغموض فى نظرصديقه الذى كان القلق ينتابه لذلك الشرود الخيالى وهما يتناولان الطعام معا ، بحيث لا يكاد الحديث ان يتصل بينهما ، حتى لقد خطر له انه يتخفى فى الصحراء وحده كى يدخن الافيون او يتعاطى غيره من المخدرات ، وان هذا الشرود النشوان نتيجة جرعات قوية منالعقاقير التى يدمنها خلسة ..

وقد دعاه ذلك القلق الى تفتيش امتعة صديقه فى غيابه ليكتشف ذلك المخدر ، ولكنه لم يجد شيئا غير الاوراق والكتب ، الامر الذى زاد دهشتة ، خاصة وان النقيب كان قلما يذوق الخمر .. فما سر هذا الشرود والشحوب والتماع العينين فى نشوة ، معالعزوف عن الكلام ، وضيق الصدر حين يخاطبه أحد فيقطع عليه شروده ؟

وذات مرة طالت غيبته فى هذه الجولة الانفرادية حتى أن الفجر اوشك ان يبزغ وهو لم يعد بعد ، فاستبد القلق بصاحبه الملازموأخذ ثلة من الجند وخرجوا للبحث عنه ، ولحسن الحظ كان ضوء القمر ساطعا ، ولم يعثروا عليه الا فى الضحى ، وهو فى طريقه عائدا الى

المعسكر ، فاعتذر بأن القمر اغراه بالمسير حتى انه نسى مرور الوقت، وقد أثار فيه المنظر ذكريات قديمة مرتبطة بالصحراء ..

وبعد اسبوع من ذلك الحادث وصل البريد ، وكانت فيه للملازم اعداد جديدة من المطبوعات العلمية ، وفيها المجلة الجغرافية الالمانية ، فأدهش ذلك الملازم ان يجد فى ذلك العدد من تلك المجلة بحثا عن بعثة « مورانج » و « دى سانت أفيت » وكشوفهما الجغرافية فى الصحراء الغربية

وما أن رأى النقيب « دى سانت أفيت » ذلك العنوان حتى اقترض المجلة من الملازم وهو مكفهر الوجه وخرج بسرعة بها الى حجرته حيث اختفى طول النهار فلم يلتقيا الا على العشاء

وتعجب الملازم لما ابداه النقيب على العشاء من مرح واضح جدا، رغم ماقى ذكرى «مورانج» من موجب للاسى بالطبع

وبعد العشاء صعد الاثنان الى سطح المبنى للاستمتاع بهواء الليل الطلق .. وكان الظلام ثقيلا ، والصمت اثقل ، وعواء بنات آوى يمزقه فى الحين بعد الحين فيبعث فى النفس وحشة ايما وحشة ، فقال النقيب وقد راى الملازم عازفا عن الكلام :

ــ الا تريد أن تفتح فمك ؟ ..

ــ آه .. ان الليل ثقيل الوطأة جدا ..

وأدهشه أن يسمع النقيب يرد عليه بما يشبه التحدى :

ــ نعم ! ما أشبهها بالليلة التى أوديت فيها بحياة النقيب « مورانج » ! ..



الفصل الثالث

البداية

قضيت ليلة اتقلب فيها على مثل جمر الغضا بعد ان سمعت ذلك التصريح المروع من فم النقيب « دى سانت أفيت » .. وفى النهار لم يتسع أمامنا الوقت للاجتماع او الحديث ، حتى اذا كانت الساعة نفسها من المساء الفيته هادىء الاعصاب كأنما لم يروعنى بتلك العبارة :

ـ انى أنا الذى قتلت النقيب «مورانج» ..

وراح يفسر لى سر ذلك الاعتراف ، متعللا بأن الوحدة الموحشة فى الصحراء ، وثقل الليل ، هما اللذان دفعاه الى ذلك الاعتراف المفاجىء دفعا ، ثم اردف :

ـ ولست أدرى يا صاحبى أانت الانسان الذى يكتم مثل ذلك السر ، ويواجه الصعاب فى سبيل ذلك ، الى اللحظة المناسبة ، المهم على كل حال ان الذى صارحتك به هو الحقيقة الوحيدة الثابتة فى هذه القصة المؤسية . أما ماعدا ذلك فستعرف فى حينه انه ليس حقيقة ملموسة الآثار ، وان كنت اخصص حياتى كلها لتقديم ذلك الاثبات

واستطرد النقيب « دى سانت أفيت » :

ـ قصارى القول يا صديقى اننى قتلت «مورانج» .. وما دمت قد اعترفت لك بذلك تحت تأثير لحظة من اللحظات الغامضة فمن الطبيعى اذن أن اروى لك الظروف التى أحاطت بذلك الحادث المؤسف .. ولست بحاجة الى أن أقول لك انى سوف لا ازوق لك قصة خيالية تجعل مابدر منى مقبولا لاغبار عليه .. او فاحدثك عن العوامل البيولوجية التى جعلت منى بصورة حتمية ذلك القاتل ..

او انني سانهج منهاج المتدينين فاصور لك طفولتي في اطار من الطهر والتقوى ، وكيف انني كنت طفلا يواظب على الاعتراف للقسيس ويجد في ذلك الاعتراف لذة .. كلا يا صديقي .. كل هذه سبل فارغة لا أعمد اليها .. ولذلك سأبدأ القصة لا من عهد الطفولة ، ولا بالحديث عن نفسي ، بل بالمناسبة التي جمعتني بالنقيب « مورانج » ..

والحقيقة انني سمعت باسمه قبل ان التقى به بزمن طويل. وكنت في ذلك الحين ملازما في ادارة الشئون العربية ، وهنـاك كان يتردد اسم « مورانج » الذي كان مشهورا بحبه للدراسات العربية وبالعرب وبتضلعه في الخطوط القديمة وحل طلاسم اللغات المندثرة

وفي تلك الفترة عهد الى بالقيام برحلات استكشافية في الصحراء .. فرأيت هذا التكليف فرصة سانحة لأشباع هوايتي الوحيدة ، وهي هواية الكشوف الجغرافية والجيولوجية والتوغل الى مجهولات الحضارات القديمة والدروب المندثرة ، ويسعدني جدا ان ابتعـد عن حضارتنا المادية الصاخبة في مثل هذه الرحلات التي تستثير الهمة والخيال

واذ أنا سعيد بهذا الاستعداد ، أتلهف على الانطـلاق ، وصلت الى مكتب الشئون العربية برقية من وزارة الحربية تتضمن أمرا الى الملازم « دي سانت افيت » ان يؤجل القيام برحلته العلمية الى حين وصول النقيب «مورانج» الذي سيتولى قيادة هذه الرحلة الكشفية..

ولا اتردد يا صديقي في مصارحتك بان هذه البرقية اثارت في نفسي غضبا هائلا ، لانني كنت صاحب فكرة هذه الرحلة منذ زمن طويل وانا الذي قمت بجميع المساعي للحصول على موافقة المسئولين ، ثم عملت المستحيل لاجمع الادوات اللازمة الى أن تم كل شيء .. واذا بي في اللحظة الحاسمة التي منيت فيها نفسي بأيام جميلة اقضيهـا منفردا في الصحراء الساحرة أرى المسئولين في باريس يفرضـون على رئيسا لا اعرفه يستفيد من جهودي بلا مقابل ويحتكر لنفسـه ثمرات النصر جميعا ..

ولم يكن امام زملائي الا ان يحاولوا تعزيتي عما اصابني من خيبة أمل ..

ولم يطل انتظاري ، فقد وصلت الى الموقـع الذي به مكتب

الشئون العربية ـ بعد يومين ـ قافلة كان النقيب «مورانج» من بين اعضائها .. وبمجرد وصوله الى المكتب ابدى رغبته فى مقابلتى ، ثم لم يلبث ان دخل حجرة مكتبى فاذا بى للاسف الشديد اكتشف انه سيكون من المتعذر على الاحتفاظ بحقدى على مثل هذا الرجل مدة طويلة .. فقد كان رجلا بدينا مستدير الوجه احمر اللون ، تزينه عينان زرقاوان ضاحكتان وشارب اسود صغير .. اما شعر رأسه فقد اشتعل شيبا رغم نضارة محياه . وبمجرد ان تكلم شعرت انه يجمع الى بشاشته صفة نادرة هى الصراحة المحببة التى لم اعتقد انى وجدت لها مثيلا عند سواه ..

وليس أدل على ذلك من ان عبارته الاولى التى وجهها الى قوله :

ـ الحقيقة اننى افهم شعورك تماما يا زميلى الفاضل .. فمن الطبيعى ان تنطوى على حقد شديد على هذا الرجل البغيض الذى خطف منك جهودك فى اعداد مشروعك ، وفرض عليك ان تنتظر حضوره كى يلازمك فى رحلة انت احق الناس بتولى امرها !.

ورغم لهجته الودية البشوش ، قلت له بفتور :

ـ اوه اطلاقا يا سيدى النقيب ..

ـ الحقيقة ان اللوم يجب ان يقع عليك انت فى هذا ..

ـ على أنا يا سيدى كيف هذا ؟

ـ ذكاء المرء محسوب عليه .. وكذلك علمه محسوب عليه ايضا وقد وصلت الينا فى باريس شهرة معرفتك النادرة بدروب الصحراء فى هذه المنطقة ، وهذا ماحدا بى الى الاستفادة من خبرتك رفيقا لى فى تلك المهمة التى اتفقت وزارة المعارف مع وزارة التجارة والجمعية الجغرافية على تكليفى بها ..

ـ اى مهمة يا سيدى النقيب ؟ ..

ـ ان هذه الجهات الثلاث متفقه على وجوب الكشف عن طريق القوافل القديمة التى كانت شريانا تجاريا يصل بين تونس والسودان ابتداء من القرن التاسع الميلادى . وقد عهدت الى هذه الهيئات الموقرة باعادة رسم هذه الطريق أو تقديم تقرير اليها عن امكان اعادتها الى سالف مجدها الداثر . وفى هذه الفترة بالذات ـ فترة الاستعداد للقيام بهذه المهمة ـ ترامى الى سمعى فى الادارة الجغرافية

نبأ هذه الرحلة التى فكرت انت فيها من جانبك .. ووجدتك فيك طوق النجاة !

ـ طوق النجاة يا سيدى ؟ ..

ـ نعم طوق النجاة بلا شك .. فهذه اول رحلة كشفية اقوم بها على الطبيعة فى الصحراء ، فقد كانت سائر رحلاتى السابقة على الورق ، بين المخطوطات والآثار . وثق اننى لا أجد ادنى مشقة فى القاء محاضرة فى مدرسة اللغات الشرقية عن اللغة العربية القديمة او الادب الجاهلى او اللغة الحميرية ، ولا احتاج فى ذلك الى تحضير أو مراجع ، بل اتكلم ارتجالا وعلى البديهة . اما فى الصحراء فلا استطيع ان أحدد اتجاهى ، هل يحسن ان يكون الى اليمين أو اليسار .. وهاانا ذا اجد اطيب فرصة لاتعلم منك ذلك كله على الطبيعة ، وفى الوقت نفسه احظى بصحبة ظريفة جدا .. وها انت ترى انى قد خضعت لعوامل انانية جدا كى استغل معلوماتك لتعويض ما عندى من جهل ، واستبحت لنفسى ان استعمل نفوذى المتواضع لتأخير رحيلك كى يتسنى لى اللحاق بك .. واحب ان اضيف الى هذا شيئا آخر : وهو اننى لا احمل الا رتبة شرف ، فانا موظف مدنى فى الاصل ، اما انت فجندى محترف وتابع لوزارة الحربية ، ولهذا سأظل الى ان نصل الى غايتنا فى هذه الرحلة اعتبر نفسى المرءوس الحقيقى لك ، واعدك بأن انفذ كل تعليماتك بدقه وبلا تردد . وفى مرجوى ان تمنحنى صداقتك ايضا ..

ولست بحاجة الى أن أقول لك يا صديقى ان هذه الصراحة العظيمة اثرت اعظم التأثير فى نفسى ، وبددت ما كان قد تجمع لدى من سوء الظن بـ « مورانج » قبل ان اراه .. ومع هذا ساورنى خاطر خبيث ، مؤداه ان اتصنع الفتور انتقاما منه لانه فرض نفسه على بدون مراعاة لظروف او استئذانى .. ولذا قلت له :

انا بطبيعة الحال شاكر لك جدا يا سيدى النقيب ما تفضلت به من الثناء الجميل على شخصى ، وانا على كل حال رهن اشارتك . ولا يسعنى شىء غير ذلك ، فمتى نريد ان نرحل ؟..

فهز كتفيه وقال بلا مبالاة :

ـ لنرحل فى اى وقت تشاء .. الليلة ان اردت . فانت قد اتممت

استعدادك للسفر منذ مدة ، وكنت تريد الرحيل ، ولم تنتظر حتى الآن الا بسببى .. هيا بنا الليلة اذن !

واحسست ان سهمى قد ارتد الى ، لانى فى الواقع - رغم تظاهرى بالضيق لهذا التعطيل - لم اكن قد رتبت امرى للسفر قبل الاسبوع التالى . فقلت له :

- الليلة يا سيدى ؟ ..

- أو غدا ان شيئت ..

- ولكن الا تنتظر حقائبك ومعداتك يا سيدى ؟.

فأشرق وجهه بابتسامة لطيفة وقال :

- لا تقلق من هذه الناحية ، لانى رايت الا آخذ من الامتعة الا ما يطيق حمله بعيرى المسكين : ملابس قليلة جدا ، واوراق قليلة ، اما بقية الاشياء التى تلزمنا فاعتمادى فيها عليك ، وان رايت انه يلزمنى شىء فسأسترشد بك فى الحصول عليه من هنا ..

وهكذا ألفيته وقد جردنى من اسلحتى جميعا .. فماذا اقول لمثل هذا الرجل ؟ .. وكيف يمكن أن احقد عليه ..

وعندما جمعنا مجلس الشراب - انا وبقية الضباط - اجمع الكل على انه رجل ظريف جدا ، وطمأنونى الى انى لن اجد فى صحبته مضايقات من اى نوع .. وكان ردى على ذلك هو الموافقة طبعا ، الا انى لسبب مابدوت لهم شارد الذهن ، فخطر لهم انى حاقد عليه فى أعماق سريرتى . وهذا ما جعلهم - بعد وقوع الحادث - يصرون بينهم وبين أنفسهم على أنى كنت اضمر له السوء منذ البداية .. وظنوا أنى أخشى أن يخطف منى ثمرات جهودى وينسبها لنفسه

وبعد قليل من الوقت أقبل على مجلس الضباط قائدنا المحلى ، وقد تأبط ذراع النقيب « موارنج » البدين .. وكان واضحا جداً أن القائد سعيد جدا بالتعرف اليه وقضاء بعض الوقت مع هذا الشخص المرح الظريف ..

وقام القائد بالتقديم التقليدى فى حماسة :

- اسمحوا لى أيها السادة أن أقدم لكم النقيب « مورانج » .. وهو من الطراز النادر الذى يحب المرح والسرور .. وقد ساءنى أنه يفكر فى الرحيل غدا ، ولكننا لا يمكن أن نسمح لرفيق مرح مثله أن يفارقنا

بهذه السرعة الخاطفة ·· لذلك عليكم أن تقيموا له سهرة صاخبة تنسيه بعد ساعة كل تفكير فى السفر ، لاننا نريد منه أن يقضى هنا معنا ثمانية أيام قبل السفر ··

فابتسم « مورانج » ابتسامته العذبة ، وقال :

ـ انا فى هذه المسألة خاضع لاوامر الملازم « دى سانت أفيت » !

وهكذا بدأت السهرة · وما كان أشد ذلك المرح الذى أثاره النقيب البدين عالم اللغة العربية المتضلع ! ·· انه أشد الناس حبا للنكتة ، وأكثرهم بشاشة وقصفا ·· وما أغرب احاديثه ونوادره · وكم بدا لنا النبيذ لذيذ الطعم !

وبعد ساعة أخرى من القصف حانت ساعة العشاء ، فصاح القائد وهو ينهض ويتناول يد النقيب يدعوه للتقدم :

ـ ستجلس عن يمينى على المائدة ·· وستزودنا بمدد اخرمن أحاديثك عن باريس وما يجرى فيها ، فاننا هنا لا نعرف شيئا عما يجرى فى بلاد النور كما تعلم ··

ـ بكل سرور يا سيدى القائد ··

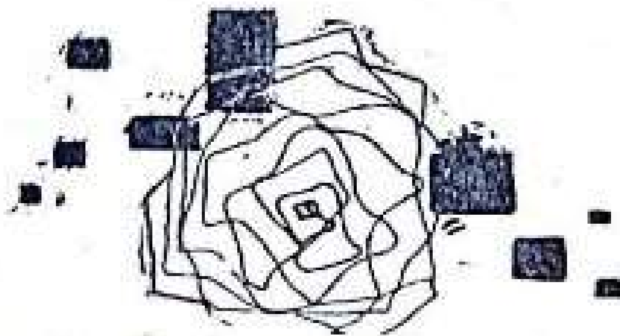
ليجلس كل منكم فى مكانه أيها السادة ··

وجلس الضباط ، وبدأ الزؤاط ·· أما أنا فكنت ساكنا ، لا أدرى سر الشرود الذى استولى على ··

ولم يجلس النقيب « مورانج » كما جلس الضباط ، بل ظل واقفا ، ثم قال :

ـ سيدى القائد ·· حضرات الضباط ·· أتسمحون ؟

واذا هذا الرجل المرح يتمتم صلاة شكر قصيرة قبل الطعام بخشوع شديد ·· ثم جلس ليستأنف اذكاء المرح فى نفوس الضباط الى موهن من الليل



الفصل الرابع

المرحلة الأولى

وبعد أسبوعين من ذلك التاريخ ، كنا نضرب فى الصحراء بمحاذاة ملاحة متشابهة اللون ، تلمع بسطحها الزجاجى الازرق الخفيف تحت أشعة شمس الصحراء الكبرى المحرقة • ولا يعكر هذه الزرقة الخفيفة الا ظلال قاتمة ترسلها الجمال الخمسة التى تتكون منها مجموعتنا الصغيرة • ولم يكن فى هذه المنطقة القفر من الاحياء سوى نوع من الطيور أشبه بمالك الحزين يحلق فى الفضاء فترات غير طويلة ، ولا يلبث أن يحط على الارض كلما ابتعدنا عن منطقته ، لان قدومنا روعه ••

وكنت أنا الذى أركب الجمل الاول ، فى مقدمة الركب الصغير ، ومن ورائى مباشرة النقيب « مورانج » وقد لبث ثيابا مغربية بيضاء ووضع البرنس الابيض على رأسه ليحميه من الشمس ، وحول عنقه مسبحة طويلة كبيرة الحبات تنتهى بصليب كبير ، على طراز الرهبان البيض الذين ينتمى اليهم ••

وقد اتضح لى فى خلال هذه الايام مدى تضلع هذا الرجل البدين فى أحوال الصحراء وعادات أهليها ، مما جعلنى أبدو فى نظره وكأننى طفل صغير •• كما أنه أظهر ألوانا من الاعاجيب فى سلوكه تجعله فى مصاف أصحاب الكرامات من الاولياء ••

ومن ذلك ما حدث عندما ظللنا ستة أيام فى منطقة جدباء لا أثر فيها لقطرة ماء واحدة ، فكان علينا أن نحسب حساب كل قطرة مما معنا ، ونحن معرضون للتيه والضلال فى الصحراء المهلكة • وكنا نعلم أن أمامنا يومين قبل أن نصل الى أول بئر •• واذا بنا نلتقى بقافلة ضلت طريقها قليلا فأتى الجوع والعطش على ما فى جمالها من قوة ،

حتى لقد كادت أسنمتها تختفى من شدة الهزال . وكان يمشى فى أثر هذه القافلة عير صغير يتعثر فى مشيه محاولا اللحاق بالركب ، وكان أصحاب القافلة قد تركوه موقنين بموته وعجزه عن اكمال الطريق .. الا أن الجحش الرمادى كان يتبعهم مدفوعا بفطرة حب الحياة وبحكم العادة ، وكأنه يشعر أن وقوفه فى مكانه معناه الموت المحقق ، وعندئذ لن يحميه شىء من الصقور والعقبان التى تنقض عليه ..

وأنا شخصيا أحب الحيوانات الاليفة ، وكثيرا ما فضلتها على بنى الانسان لوفائها وطيبتها ومسالمتها .. الا أنه لم يكن ليخطر ببالى اطلاقا أن أفعل هذا الذى أتاه « مورانج » ..

وكانت قرب الماء التى نحملها شبه خاوية ، ونحن لندرة ما معنا من الماء لم نسق جمالنا الخمسة منذ ساعات طويلة رغم عطشهاالشديد، مع أن هذه الجمال هى سندنا الوحيد فى البقاء على قيد الحياة ..

وماذا تظن « مورانج » قد فعل ؟..

لقد أناخ راحلته بهدوء ، ثم تناول قربة ماء واقترب من الجحش المتهالك على الارض فسقاه .. واذا بالحياة تدب فى ذلك الحيـــوان الصغير ، وأخذت أنفاسه تتردد . وشعرت لذلك بفرح عظيم شخصيا .. ولكنى فى الوقت نفسه كنت المسئول ــ باعتبارى الدليل ــ عن حياة المجموعة .. ولاحظت ايضا أمارات الاستنكار على وجه العرب المرافقين لنا ، وقد كادت ألسنتهم تتدلى من أشداقهم من شدة العطش ، فكيف يذهب الماء الثمين ليروى به جحش أعجم غلة عطشه ؟ ..

ولم أجد مفرا من لفت نظر « مورانج » الى مغبة ما يفعل ، ولكن الرجل البدين لم يكترث بل هز كتفيه وقال :

ــ لا تهتموا .. أنا لم أسقه أكثر مما يخصنى من هذا الماء ..

ــ ولكننا لم نزل بعيدين عن أول بئر ...

ــ أنا أعلم أننا سنصل اليها مساء غد ..

ــ وهو وقت طويل .. !

ــ ليس طويلا جدا .. فانا واثق أنى سوف لا أشعر بالعطش قبل حلول مساء غد ! ..

ولاول مرة منذ التقينا أحسست فى لهجته نبرة الرئاسة ، فكأنه يمارس سلطته كنقيب لاول مرة بالنسبة لى .. !

ولا أكتمك الحقيقة أنى ظننته يخدعنا ، لانه يعلم انه باعتباره الرئيس لن يموت عطشا ، وان ما فى قربتى وفى قربة العربى الدليل «أبو جمة» رهن اشارته عندما يشعر بالعطش .. فليس كلامه هذا الا تظاهرا فى واقع الامر ..

ولكن ثبت لى انى كنت مخدوعا ، وانى لم اعرف حقيقة « مورانج» وقدرته على نفسه .. فقد ظل فعلا هادئا لا يشرب ولا يطلب الماء ولا يبدو عليه الاعياء من العطش الى مساء الفد ، حتى وصلنا الى اول بئر ..

وكنا قد عرضنا عليه السقيا أكثر من مرة ، ولكنه كان يصر على الرفض بهدوء وبشاشة ..

لن أنسى هذا الحادث الفذ ، وما احسب فى الدنيا كلها صورة أقرب الى صورة القديس « فرانسوا الاسيسى » فى رحمته ونبله من من صورة « مورانج » العالم الراهب البدين ..

وبعد اسبوع آخر قال لى النقيب « مورانج » :

ـ اترى ! .. لقد نصحتك أن تنحرف عن طريقك قليلا الى الجنوب. وكانى كنت أشعر بالالهام انك ستجد هنا شيئا يعنيك جدا فى ابحاثك .. ففى هذه المنطقة من الحصى والاحجار ما تستطيع به من غير كبير عناء ان تحدد بشكل حاسم الاصل البركانى لهذه المنطقة كلها ، وهو مالم يستطعه احد من العلماء من قبل ، وكان مثار خلاف كبير حتى الان كما تعلم ..

وشرعنا معا نلتقط عينات من الحجارة ، والحقيقة انه كان ابرع منى كثيرا فى التمييز بينها ، مما دلنى على رسوخ قدمه فى علم طبقات الارض ، وهو الذى كان لتواضعه الشديد يزعم انه لا يعرف شيئا ذا بال فى هذا الموضوع ..

ولما حاولت ان أعبر له عن امتنانى ، احمر وجهه واسكتنى بنظرة توسل ، وعندئذ سألته :

ـ ولكن احب ان اعرف منك شيئا لم يزل يساورنى ...

ـ وما هو ؟ ..

ـ لم افهم بعد الجدوى العملية لرحلتك هذه ..

ـ وهل لا تعتبر كشف طريق القوافل التاريخية عملا يستحق عناء السفر ؟ .. ان هذا الكشف سيساعدنا فى الكشف عن الصلة

القديمة بين حوض البحر الابيض المتوسط واواسط افريقيا عامة والسودان خاصة ...

– كل هذه يا سيدى النقيب مسائل علمية .. ولكن اريد ان اعرف الفائدة العملية ..

– ان اعادة الطريق قد يترتب عليها تنشيط التجارة من جديد.. وهذا غرض عملى كما ترى ..

ثم ابتسم « مورانج » ابتسامة غامضة وقال :

– ولكن قلبك لم يكذبك .. فهذه الاغراض الرسمية كلها ليست سوى مبررات ظاهرية لغرض آخر .. غرض شخصى فى الواقع

واستبد بى الفضول فقلت بلهفة :

– وهل تعتبر تطفلا منى ان اعرف هذا الغرض ؟ ..

فابتسم « مورانج » وقال :

– كلا .. اطلاقا .. سوف نصل بعد أيام قلائل الى الموضع المسمى « الشيخ صلاح » ، وهناك سنفترق ، انت على حسب خطتك فى رحلة وزارة الحربية ، وانا على حسب خطة وزارة التجارة ، بعد ان ينتهى الجزء المشترك من سفرنا معا . ولما كنت أقر لك بالفضل الكبير فى ارشادى فى هذه المرحلة الاولى ، فانى ارى من الواجب اللزام على ألا أخفى عنك شيئا ..

وكنا ونحن نتبادل هذا الحديث قد كففنا عن المسير عند حافة خور جاف ذوت نباتاته ، الا من دائرة صغيرة تحدق عن بعد بعين ماء .. وكنا قد حططنا عن رواحلنا أحمالها كى تستريح مدة الليل ، فمضت تتنقل بين الاشواك والاعشاب بخطاها الواسعة ترعاها فى شىء من الرضى بعد عناء المسير فى النهار .. اما « أبو جمة » دليلنا العربى فقد ابتعد عنا قليلا واشعل نارا من الاشواك يتصاعد منها دخان أزرق ، كى يعد لنا عشاءنا المتقشف ..

وكان الدخان يتصاعد فى خط مستقيم الى السماء ، لان الريح ساكنة لا تعكرها نسمة واحدة ، حينما استطرد « مورانج » قائلا :

– هل سمعت عن كتاب اسمه « اطلس العقيدة المسيحية » ؟

ففكرت قليلا ثم قلت :

– اظن هذا .. واظن ايضا ان الذى قام باعداد هذا الاطلس عالم

راهب اسمه « جرانجر » ونشره الرهبان البندكت ؟

فقال « مورانج » :

ـ بالضبط .. هذا هو الاطلس الذى اعنيه .. وموضــوعه كما تعلم تحديد المدى الذى بلغه انتشار العقيدة جغرافيا فى كل عصر من العصور ، فى كل قارة من القارات .. وهو عمل جليل وشــاق كما تعلم ..

وعندئذ قلت له :

ـ وهل غرضك من هذه الرحلة ان تبين حدود انتشار العقيـــدة فى هذه الاصقاع الافريقية الصحراوية ؟

فقال « مورانج » :

ـ بالضبط .. لقد اصبت الحدس ! ..

وسكت قليلا فاحترمت صمته ، وشرد ببصره برهة فى ســـماء الليل الصحراوى ، ثم قال لى :

ـ وهذا يجرنى طبعا الى الكلام عن ماضى حياتى ايها الصديق .. ومادمت قد افضيت اليك بكل هذا القدر فسوف أحدثك اذن ببقية أمرى .. فمنذ اربع سنوات فكرت فى الترهب ، وان كان لا يعنينـــا فى الوقت الحاضر السبب المباشر الذى حدا بى الى هـــذا التفكير . المهم ان امراة كانت وراء هذا الاعتزام .. امراة ليس لهـا من المزايا سوى أنها جميلة جمالا باهرا آسرا ... المهم ان رؤساء الدير الذى رغبت فى دخوله ساورهم الشك فى سلامة دوافعى واننى أريد الترهب حبا فى العقيـــدة ليس الا .. ولذا اصر رئيس الدير على الا اجازف بمستقبلى وأقدم استقالتى من وظيفتى لادخل الدير . ولكنه أشار على ان اطلب احالتى الى الاستيداع لمدة ثلاث سنوات ، على ان أقضى هذه الســـنوات الثلاث فى الدير تحت الاختبار ، حتى اذا انتهت السنوات الثلاث امكنهم ان يقرروا ـ وان اقرر انا ايضا امام ضميرى ـ هل انا جاد مخلص فى نبذ الدنيا ام لا ..

وهذا الدير من ديور البندكت ، وقد وضـــعنى الرئيس تحت تصرف الاب « جرانجر » العالم المشهور ورئيس لجنة اعداد الاطلس، الذى اختبرنى ثم اظهر رضـاه عنى ، وسرعان ما وجهنى الى القسم

الافريقى لاعداد الخرائط الخاصة بهذه القارة فى عصورها المختلفة ، ولا سيما شمال افريقيا بالذات ..

وفى هذه السنوات الثلاث تعلمت اللغات البربرية الافريقية وخطوطها القديمة وتدربت على حل رموزها ، بما فيها كتابة الطوارق واللغة التماشيكية ولغة التيمهاك ، وغيرها من لغات الصحراء الكبرى التاريخية .. وتعلمت كذلك اللغة العربية

وانقضت السنوات الثلاث ولم يزل الرؤساء فى الدير على ارتيابهم فى خلوص نيتى وعقيدتى .. ولكنهم لم يشاءوا ان ينبذوا نهائيامسألة دخولى الدير ، وأرادوا أن يمنحونى فرصة أخرى .. فرصة عظيمة تكون امتحانا أخيرا لى ، مع تعويضى للدنيا ومغرياتها فى الخارج ، وامتحان استعدادى للتضحية فى سبيل عقيدتى ..

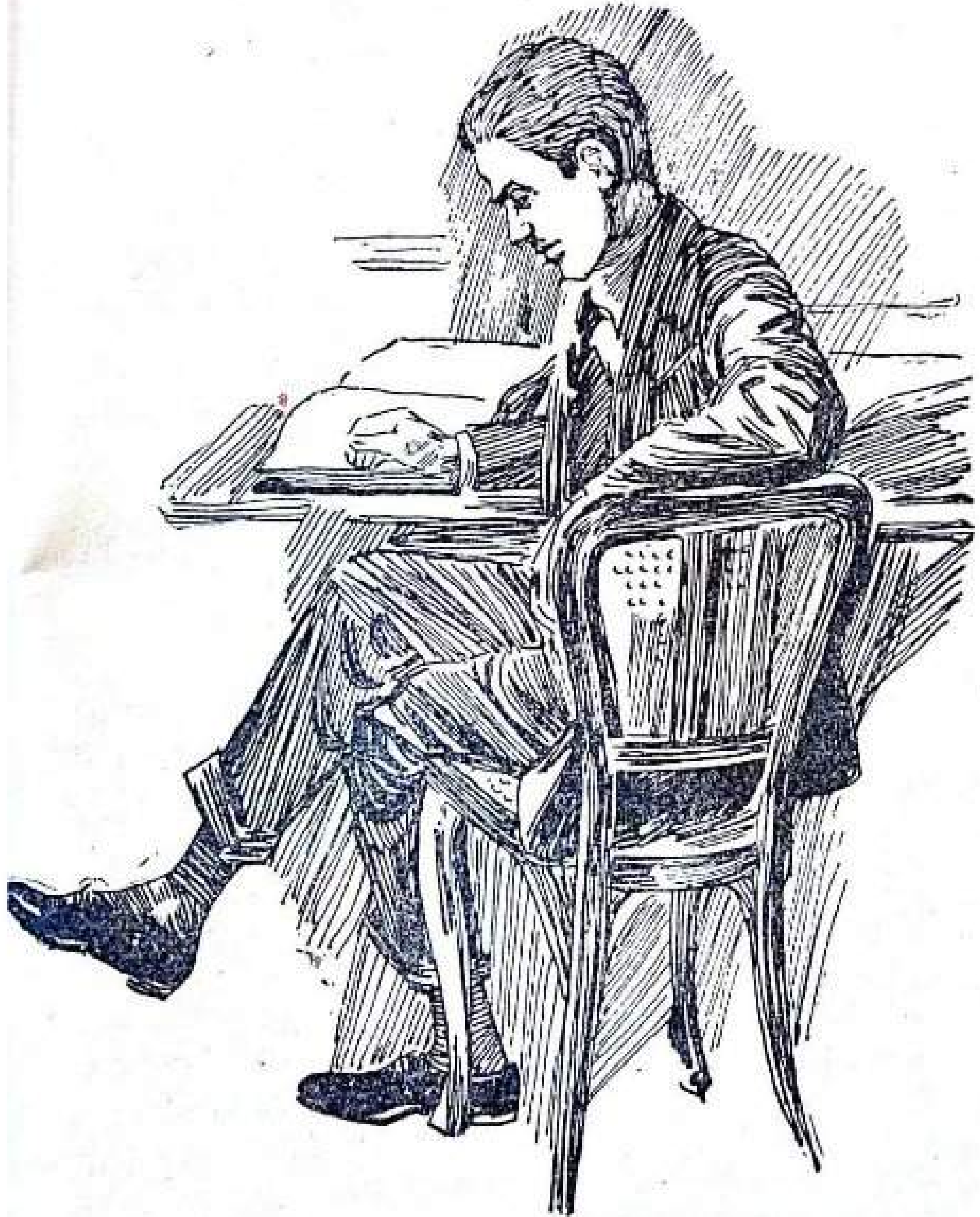
وتفتق ذهنهم عن حل بارع ، فارسل الرئيس يدعونى اليه ، وكان الاب « جرانجر » حاضرا ذلك اللقاء ، وقال لى الرئيس :

ـ بعد أسبوعين سينتهى أمد الاستيداع ، وعليك أن تعود الى باريس وتطلب عودتك الى الخدمة العاملة .. وقد سهلنا لك المهمة بوسائلنا الخاصة ، وستجد كل شيء معدا لالحاقك بالادارة الجغرافية للجيش ، وسيرحبون بذلك جدا بعد دراساتك وتدريباتك الدقيقة هنا ، فقد اكتسبت مهارات مفيدة لهذه الادارة كل الفائدة . وقد اعددنا عن طريق اتصالاتنا الخاصة بالقيادة العليا كلما يلزم لتوجيهك هناك . وبعد تسلم العمل فى هذه الادارة ستوافيك تعليماتنا ..

ودهشت لهذه المبالغة فى تقدير معلوماتى الجغرافية . والحقيقة ان معاشرتى مدى ثلاث سنوات للاب « جرانجر » وصحبه كانت تشعرنى كل يوم بضحالة معلوماتى بالنسبة لتبحرهم الواسع . ولكن ما ان دخلت الادارة الجغرافية للجيش حتى وجدت زملائى هناك فى حالة من الجهل يرثى لها ، بحيث ادركت ضخامة معلوماتى بالنسبة لهم .. !

ويبدو أن رؤسائى فى الدير دبروا كل شيىء ، بحيث لم احتج الى اى مسعى من جهتى ، بل كان رؤسائى فى الجيش هم الذين طلبوا منى ان اوافق على هذه الرحلة الصحراوية بحجة اكتشاف طريق القوافل القديم .وهكذا قدر لنا ان نلتقى هنا فى هذا الجزء المشترك من رحلتينا

.. وأن اسعد بصحبتك ، وفى املى ان أوفق لارضاء رؤسـائى فى الدير بما أصل اليه من معلومات جغرافية لخدمة هذا الاطلس ، وأن اجد بعد عودتى مكانا معدا لى فى ذلك الدير أقضى فيـه بقية ايامى فى العبادة ، وفى البحث العلمى ...



الفصل الخامس

العاصفة

وقف « مورانج » الى جانب سفح الجبل الذى بدا لنا ، ثم راح يجيل بصره هنا وهناك بين حجارته السوداء .. ثم ضرب بعصاه الحديدية فاقتطع جزءا من الصخر قدمه الى وهو يسألنى :

ــ أى نوع من الصخور هذا ؟ ..

فقلت على الفور :

ــ بازلت بالطبع ..

ــ كيف عرفت وانت لم تعرها اهتماما ؟ ..

ــ ان هذا واضح ، ولكن اهتمامى فى الحقيقة كان منصرفا الى امور اخرى اولى بالاهتمام ..

ــ اى أشياء ؟ ..

فرفعت يدى مشيرا الى جهة الغرب وقلت :

ــ دقق النظر ..

وكانت الشمس قد طلعت منذ قليل ، والساعة قد اوشكت على السادسة صباحا .. الا ان قرص الشمس كان مختفيا عن صفحة السماء التى غطتها السحب الملساء .. والجو ساكن لا تعكره هبة نسيم واحدة ..

وعلى حين غرة ، رايت أحد جمالنا الخمسة ينيخ على الارض .. وعلى حين غرة أيضا ، أندفع غزال نحو الحاجز الصخرى وارتطم به فى ذعر ثم وقف على قيد خطوات قليلة منا لا يتحرك من موضعه وقوائمه النحيلة ترتجف ..

وقبل أن نفيق من ذهولنا لهذا المنظر اقبل علينا « أبو جمة » وقال لنا :

ــ حينما ترتعد قوائم الغزال بهذا الشكل فهى علامة اكيدة على قرب هطول امطار غزيرة من السماء ..

ونظر الى « مورانج » لحظة ثم عاد للتحديق فى الافق الغربى حيث كنت اشرت له الى نقطة سوداء اخذت تنمو بسرعة ، ثم قال متسائلا:

ــ هل معنى هذا ان العاصفة ستهب ؟ ..

ــ نعم .. عاصفة فى الصحراء ..

ــ وهل هذا مايشغل اهتمامك ؟ ..

وسكت لا ادرى بماذا اجيب ، فقال :

ــ افى ذلك ما يثير قلقك ؟ ..

قالها وهو ينصرف الى مساعدة « ابو جمة » فى تهدئة ثائرة جمالنا التى بدأ الاحساس بالعاصفة يهيجها ، فقلت :

ــ لا استطيع ان اسمى مابى قلقا بالضبط .. ولكنى لم اشهد عاصفة فى هذه المنطقة من الصحراء من قبل ،ولذا لا اشعر بالطمانينة التامة . وكل الدلائل توحى بأنها ستكون عاصفة عاتية .. وان اردت مزيدا من البراهين على ذلك ، فانظر ماذا فوق هذا الجدار الصخرى ..

فرغم سكون الجو التام ، كانت قد تكونت فوق الجدار الصخرى دوامة من الرمل اخذت سرعتها تزداد بصورة مذهلة مما يدل على ان الجو الساكن مشحون بتيارات خفية . وبعد لحظة اقبلت من جهة الافق الغربى مجموعة من الاوز البرى تطير بسرعة على ارتفاع قليل وهى تطلق صراخا حادا يدل على الذعر ..

وتأمل « مورانج » هذا كله ، ثم التفت الى وسألنى بهدوء :

ــ وماذا تقترح أن نصنع ؟ ..

ــ اقترح ان نركب رواحلنا على الفور ..

ــ ولكنها فى حالة ذكر ..

ــ فى وسعنا أن نركبها الان قبل ان يقضى الفزع على ما بقى من رباطة جاشها ثم نستحثها ..

ــ الى اين ؟ ..

ــ الى اى مكان مرتفع عن سطح الارض لا يصل اليه مستوى المطر .. فنحن الان نسير فى مجرى واد سيمتلىء بعد قليل بالماء المندفع فى سيل جارف . وهذه الارض كما ترى صخرية لا يتسرب فى

اعماقها شيء من الماء كالتربة الرملية .. ومعنى ذلك ان مستوى الماء سيظل فى ارتفاع مطرد ..

ــ اتعتقد هذا ! ..

فأومأت الى خطوط غائرة فى الجدار الصخرى على ارتفاع عشرة امتار تقريبا هى بلا شك من آثار عوامل قديمة جدا لها صلة بالماء الذى كان يسيل فى هذا الموضع منذ آلاف السنين وقلت له :

ــ انظر بنفسك الى هذه الاثار .. انها آثار السيول القديمة ، ومعنى ذلك أن الماء المتدفق سيتجمع هنا الى ذلك الارتفاع فيغمرنا نحن وجمالنا ..

ــ حقا .. ليس امامنا اذن لحظة واحدة نضيعها ..

ــ بالضبط ..

ــ اذن هيا بنا ..

ووجدنا صعوبة شديدة فى حمل جمالنا على الاناخة كى نركبها .. وما أن امتطيناها حتى اندفعت فى سيرها وقد زاد الرعب من سرعتها وتخبطها ..

ولم يطل الوقت حتى بدأت الرياح تهب بشدة .. واخذت السماء تربد وتختفى منها آخر اثار الضياء حتى بدت صفحتها اشد سوادا من صخور البازلت التى كنا نسير بحذائها ..

وكنت اتقدم رفاقى فلمحت فى الجدار الصخرى ما يشبه الدرج الصاعد ، وجدت فيه ملاذنا من الهلاك . واخذت اصيح برفاقى كى يسرعوا ولكن الريح بددت صوتى ، الا انهم ادركوا اشاراتى فحثوا الخطى ..

وفجاة شق حجاب الظلام برق ثاقب .. وقصفت السماء برعود دوت فى الافق المترامى وارتطمت بالجدار الصخرى فتضاعفت اصداؤها . وبعد لحظة تفتحت من السماء افواه القرب وهطلت قطرات كبيرة ساخنة من المطر بللت ثيابنا .. فكان ذلك ايذانا ببداية انفراج العاصفة الرعدية ..

وعلى حين غرة ، انشق الجدار الصخرى عن يميننا فاذا فجوة كبيرة يخترقها واد فرعى ينشعب عن الوادى الذى كنا نسير فيه منذ الفجر . وفى ذلك الوادى الفرعى راينا الماء المتجمع من السيل يهدر كالشلال ..

والى جانب هذه الثغرة كان الدرج الصاعد فى الجبل ، فسقنا رواحلنا اليه . واخذت الجمال تصعد ذلك المرتقى الوعر بمشقة شديدة وجلد عظيم . .

ولم أكن أصدق أن الجمال قادرة على بذل ذلك المجهود الذى تعجز عنه البغال فى المناطق الجبلية ، ولكن اخفافها كانت تبدى مهارة فى تحسس الصخر والمواضع الناتئة فيه . وكانت قوائمها الطويلة تساعدها على الارتقاء الى ان وجدنا انفسنا فى النهاية فوق هضبة من البازلت مستوية السطح ترتفع نحو خمسين مترا عن سطح الوادى الذى كادت مياه السيل ان تجرفنا فيه



الفصل السادس

الـــرمـــوز !

وشاءت العناية أن تتم علينا رعايتها ، فاكتشفنا من خلفناتجويفا كبيرا وسط الصـــخور العالية ، وتولى « أبو جمة » سوق الجمال الى داخل ذلك التجويف لتكون بمنجاة من السيل الجارف والعاصـــفة الرعدية • ووقفت أنا و« مورانج » فى فوهة ذلك الكهف محتمين من المطر ، وكأننا ننظر من خلف واجهة زجاجية الى المشهد الرائع النادر الذى تكشف لابصارنا فى تلك المنطقة من الصحراء ..

كان السـيل يندفع كالطوفان فى الوادى الكبير ، ثم ينحـــدر الى الوادى الفرعى هادرا فتتلقفه الشقوق بين الصخور السوداء ، فى حين يتجاوب كل حجر ناتىء بصدى من أصداء الرعد فكأنما نشهد مناورة حية من مناورات مدفعية الميدان بأصواتهـا وانفجاراتها وكتل الرمال التى يجرفها التيار فتذوب فيه •• فما أشبه ذلك حقا بتناثر الاشلاء واجزاء التحصينات وجدرانها تحت وقع قذائف شديدة الانفجار وامتد هذا السيل فى تدفقه من اعلى واسفل مدة تزيد على ساعتين ، قضيناها أنا و« مورانج » ننظر مأخوذين الى ما تحت اقدامنـــا ، وكان الوادى والصحراء قاع بوتقة عجيبـــة تدور فيها وقـــائع الطبيعة وعنـــاصرها فتنصهر محدثة تيارات خفية لايرى الانسان مثيلا لها فى عمـــره لولا الصدفة المواتية • وكلما شهدنا جانبا منذلك المسرح السحرى الرهيب استولت علينا فتنة فوددنا لو رأينا منه المزيد ، لان سحر المنظر اختلط بالخوف والرهبة فى مزيج أخاذ لا يمكن للمرء أن يعبر عن مـــدى نشوته وسلطانه ..

بل اننا نسينا فى غمرة هذا السحر العجيب أن الهضبة الصخرية

المكونة من البازلت كانت ترتج أحيانا تحت اقدامنا بما يرتطم بها من طوفان المـاء فى صدمات عاتية يزيدها صوت الرعد المدوى رهبة على رهبة .. ومع ذلك لم نشعر برغبة فى زوال هذا الحلم المخيف ، لان ما فيه من جمال كان من طبقة اعلى بكثير مما فيه من دواعى الخـوز والانانية الضيقة

وبعد انقضاء ساعتين من هذا الحلم النادر ، كاننا نشهد شيئا خارج اطار الطبيعة المالوفة ، تبددت الظلمة وذر قرن الشمس مرسلا شعاعا تحللت أطيافه فى قوس قزح هائل ملأ صفحة السماء من أولها الى آخرها وكانه منجل ضخم مصنوع من النار أعد لحصـاد الارض بضربة واحدة .. ولكن منظره كان مقرونا فى النفس ببداية مرحلة من السكينة فى عناصر الكون

وعندئذ فقط نظر « مورانج » الى ونظرت اليه نظرة العـائدين من رحلة عجيبة ، ثم تهلل وجهه بابتسـامة لا تقل عن اشراق الشمس وضاءة ولطفا ، ومد يده ليشد على يدى ، وفى بساطته المعهودة قال لى :

ـ اسمح لى ايها الصديق ان اشكرك .. فلولا ما اديته من دقة الملاحظة وسرعة الخاطر لقضى علينا ان نموت اسخف ميتة كتبت على انسان قط .. فمن المعقول أن يسمع الناس بأشخاص يموتون عطشا فى الصحراء . أما أن يموت الانسان غرقا بالماء فى الصحراء فتلك مفارقة ليس أدعى منها لاضحاك الناس بما فيها من تناقض ! ..

وانى ياصديقى كلما تذكرت عبارته هذه وموقفنا ذاك ، يخامرنى نوع غريب من التمنى .. فمـاذا لو أن راحلة « مورانج » تعثرت بنا ونحن نجرى فاغرقه السيل وعجزنا عن انقاذه ؟ .. ولو ان ذلك حدث لأزيل عن كاهلى ان تكون نهاية ذلك الرجل الطيب على يدى ! ولكن المقدور كان ينبغى أن يتم .. وسرعان ما أراجع نفسى فى ذلك التمنى ! فالحقيقة اننى غير آسف على أن ما كان .. حدث على ذلك الوجه المقدور

وظللت واقفا فى فوهة الكهف أتابع المنظر ، وقد بدأت العناصر الثائرة تهدأ .. أما « مورانج » فتحول اهتمامه الى داخل الكهف فشرع يقوم باكتشافه وقد نبهه الى ذلك صوت رغاء الابل من خلفه وقدراحت تتغنى قريرة العين بانتهاء العاصفة !

ورأيت الماء يأخذ مستواه فى الارتفاع باسـتمرار بسبب تزايد

ما ينحدر الى الوادى الفرعى من سيول الوادى الكبير رغم انقطاع المطر .. وما لبثت الشمس ان ملأت السماء وقد خلت من الغيوم تمام الخلو وسادتها الزرقة الصافية . وشعرت باستمادة الهواء لجفافه المألوف فى الصحراء عندما أحسست ثيـــابى المبللة تجف بسرعة عظيمة فوق جسمى ..

وانتزعنى من خواطرى كف وضعها صاحبها فوق كتفى من الخلف ، ونظرت فاذا « مورانج » قد عاد من داخل الكهف ووقف الى جوارى. ولاحظت ان ابتسامته فى هذه المرة تحمل معنى آخر الى جـانب معنى الطيبة والتهلل ..

ولم يترك لى فرصة للتساؤل ، بل قال :

– تعالى معى ..

وفى صمت وانقياد تبعته الى داخل الكهف ، وقد بدأ ضوء الشمس يتسلل الى حيث بركت الجمال . وتجاوز « مورانج » ذلك الموضع الى حيث جدار من الكهف مسطح أملس ، وقال فى فرح شديد كفرح الطفل الذى وجد شيئا طريفا :

– مارأيك فى هذا ؟ ..

– فى ماذا؟

– عجبا ؟ .. الا ترى ما امامك ؟ ..

فقلت فى شىء من الخسة لانغص عليه نشوته :

– ان هى الانقوش عادية من النوع الذى يألف الطوارق استخدامه .. هذا ما ارجحه على كل حال لانى لا اعرف شيئا عن لغتهم . فهل وجدت فيها انت شيئا مما رأيناه من نقوشهم المماثلة من قبل ؟ ..

ولم يجب « مورانج » على سؤالى مباشرة ، بل قال وهو يشـــير الى مجموعة منفصلة من النقوش :

– تأمل هذا ..

وكان فى لهجته من الاهتمام والزهو ما جعلنى أتأمل تلك المجموعة المتميزة بتركيز شديد ، فاذا مجموعة من النقوش على شكل صليب متماثل يشبه الى حـــد كبير الطريقة المتبعة فى كتابة علامة « باير » المعروفة .. بالأطراف منتظمة متشابهة فى كل اثنين منها على الاقل ، وموضع التقاء الاضلاع الاربعة للصليب حرف واحد او رسم واحـــد

بعينه يشبه الرقم ثلاثة الافرنجى او الرقم اربعة العربى مقلوبا

ولاحظت ايضا أن النقش منتظم جدا وغائر فى الصخر .. وكان واضحا انه يرجع الى عصر قديم ..

وكأنما نسينى « مورانج » لشدة استغراقه هو أيضا فى تأمل النقش الى ان نظرت اليه متسائلا فالتفت الى وقال :

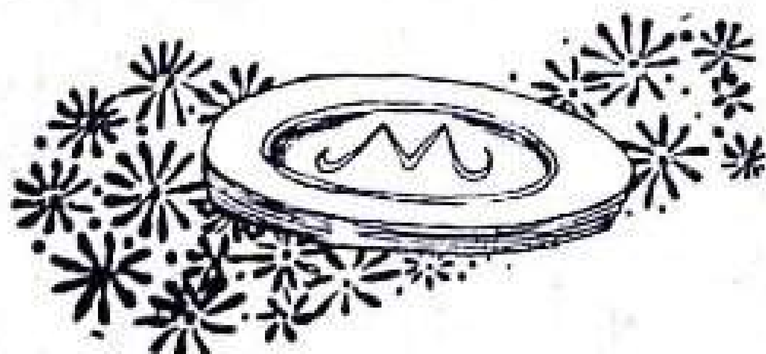
— هه ؟ .. ما رأيك الآن ؟

— من قال لاأعلم فقد أفتى .. الحقيقة انى لااعرف شيئا من الرموز القديمة المتبعة فى هذه الاصقاع

وحاول « مورانج » ان يساعدنى على تهجى حروف هذه الكلمة المكررة مرتين بشكل متقاطع رغم محاولاته الكثيرة لمساعدتى . وأخيرا بعد مزيد من الارشاد والتوجيه عرفت أن الكلمة هى « انتينيا » . وعرفت منه ايضا انها ليست من الالفاظ المعروفة فى اللغات المحلية ، وانما هى لفظ يونانى قديم ..

وهذا الاكتشاف — ان صح تأويله يدل على شىء كثير جدا .. يدل على الاتصال القديم بين الثقافة اليونانية القديمة وثقافة الطوارق .. أو على الاقل يدل على ان ثمة اتصالا حدا بالطوارق الى كتابة هذا اللفظ اليونانى بحروفهم ، وانه مقدس لديهم بحيث يحفرونه على هذا الشكل ..

ووجدت الحق فى جانب « مورانج » وهو يقرر فى النهاية ان اكتشافه هذا يعتبر فتحا عظيما فى عالم الآثار ..



غريق فى الصحراء!

ولم نستطع بعد هذه القراءة للنقش الذى أمامنا أن نسترسل فى التأويل لان صرخة ثاقبة من خارج الكهف شقت حجاب الصمت وقرعت أسماعنا ، فأسرعنا متلهفين لنرى مشهدا عجبا ..

كان السيل مستمرا فى اندفاعه رغم انقطاع المطر بمدة ، وسطحه الهادر يعلوه زبد اصفر من أثر الرمال المجروفة . ووسط هذا الزبد رأينا شيئا يتخبط فى التيار .. شيئا رماديا غير واضح المعالم .. ولم أعرف أنا و « مورانج » ما هذا الشىء .. ولكن يبدو ان دليلنا العربى « أبو جمة » عرف ما هو ، لاننا رأيناه يتـواثب بين الصخور على حافة الهضبة العاليـة وكأنه يريد أن يتابع مسير ذلك الشىء المجهول وسط التيار ..

وكان ذهولنا لتصرفه هذا شديدا ، لاننا نعرف فى ذلك العربى وقاره وثباته ، فهو لا يخف الى شىء فى هذه الحماسة بسهولة . ولم يلبث ذلك الشىء الرمادى أن تبين لنا وقد برز منه عنق طويل وانبعث منه صرخة هزيلة ، فقلت :

ـ لابد أن هذا أحد جمالنا ، وقد جرفه السيل .. ولكن « ابو جمة » مخطىء فى تعريض نفسه للهلاك بسبب الجمل ..

واجابنى « مورانج » مصححا وهمى :

ـ انت واهم ياصديقى ، فهذا الجمل لايخصنا .. لانى رأيت منذ قليل جمالنا الخمسة فى داخل الكهف . ولكن الجمـل يعتبر ثروة ثمينة بالنسبة لاى عربى . ولا شك أن « أبو جمة » لا يفلت فرصة العثور على جمـل لا صاحب له اذا تمكن من انقاذ هذا الجمـل من الغرق

ـ ولكن من صاحب الصرخة الادمية التى سمعناها ونحن فى داخل الكهف ..

ـ للاجابة عن هذا السؤال ينبغى ان نجيل بصرنا فى الوادى من الجهة الاخرى .. فقد نرى عندئذ صاحب الجمل الذى اطلق صرخة الاستغاثة ..

ولم ينتظر « مورانج » ردا ، بل دار على عقبيه واتجه الى حافة الصخرة من الجهة الاخرى .. فكان هذا الاتجاه هو الباب الذى دخل منه الشر الكثير الذى اعقب ذلك !

وبطبيعة الحال تبعت « مورانج » .. ولم يكن التنقل بين الصخور الناتئة شيئا هينا ، ولكننا قطعنا معاً نحو نصف كيلو متر الى أن رأينا من تحتنا ثغرة يرتطم فيها الماء قبل ان يدور منحدرا الى فوهة واد فرعى .. ووقف « مورانج » يحدق فى ذلك الخليج ، ثم جذبنى من كمى ليسترعى انتباهى ، فنظرت فاذا كتلة سوداء يتجاذبها تيار الماء ..

وهبطنا قليلا حتى تبينا تلك الكتلة ، فاذا رجل من الطوارق فى ثوب أزرق قاتم يحاول ان يتشبث بالحاجز الصخرى على غير طائل .. وعندئذ رأيت « مورانج » يهبط الى قرب مستوى الماء ، ثم يهيب بى أن أثبت يسارى فى الصخر وان أمسك بيمينى يده اليسرى كى يتسنى له مزيد من الهبوط الى أسفل كى يدانى مستوى السيل.

ولكم كان قوى البنية ، فاذا به يرفع بيده الواحدة جسم ذلك الغريق من تيار السيل ... وبعد أن القاه على الصخر راح يفحصه بلهفة ، ثم قال بارتياح :

ـ الحمد لله انه لم يزل على قيد الحياة .. ولكن لابد لنا ان نتعاون فى نقله الى الكهف لاننا لا نستطيع اسعافه بالعلاج هنا ..

ولكنه لم يلجأ الى مساعدتى له كثيرا ، اذ حمل الغريق معظم المسافة وحده ، رغم انه كان شخصا فارع الطول شأن معظم رجال الطوارق فى تلك المنطقة ..

وعند ما وصلنا اخيرا الى الكهف ، وجه « مورانج » عنايته كلها الى افاقة ذلك الطارقى ، وكان لونه قد استحال الى زرقة تشبه ثيابه الطويلة الفضفاضة . وبشىء من الخمر القوية ، صببتها فى حلقه ،

ترددت انفاس ذلك الغريق من جديد وفتح عينيه فاجال فينا نظرة دهشـــة ، وقال بلهجته القومية قبل ان يغلق جفنيه ـ كرة اخرى ـ عبارة غامضة لم نفهم لها معنى فى ذلك الحين ، ولكن معناها تبين لنا بعد ان تكشفت الاحداث عن ختامها العجيب بعد بضعة أيام ..

وكانت هذه العبارة الغامضة قوله :

ـ اترانى بلغت غاية مسعاى ؟! ..

وقلت اسأل « مورانج » :

ـ عن اى غاية واى مسعى يتحدث ؟ ..

فقال « مورانج » :

ـ لعله يهذى .. والمهم الان ان ندعه يسترد قواه ، ثم بعد ذلك نستطيع ان نستوضحه عن كل ما نريد .. وافتح له علبـة من علب الاطعمة المحفوظة فانه فى حاجة الى تغذية جيدة ..

وكان هذا الطارقى فارع الطول كما قلت ، وسيم المحيا ، نحيـل القامة ، خفيف اللحية ، أبيضا مشربا بحمرة .. وكان الشيب المنتشر فى رأسه ـ حتى لقد توارى سواده ببياضه ـ ينبى عن رجل ناهز الستين . وما ان صببت فى حلقه جرعة اخرى من الخمر المركزة حتى احمرت وجنتـــاه ، وهش للطعام الذى قدمته اليه .. وكان قوامه اللحم المحفــوظ فى العلب ، فانقض على ما أمامه ـ وهو وجبة تكفى اربعة رجال اشداء ـ فالتهمها فيما بين طرفة عين وانتباهتها !

وابدى « مورانج » اعجابه بهذه الشهية القوية ، ثم قال لى اننـــا فى حل الان من ان نستوضحه كما نشاء عما نشاء ..

وما ان فرغ ذلك الطارقى من طعامه ، وكانت الثياب قد جفت على جسمه ، حتى اعاد الى محياه لثامه الذى عرف قومه باســتخدامه حتى اطلق عليهم اسم الملثمين ، فلم يعد يبدو منه لنا الا بريق عينيه الثاقبتين ..

واعرب الطارقى الشيخ لنا عن شكره بحرارة . وفى اللحظة التالية، ظهر فى نظراته القلق واللهفة ، وصاح يسالنا :

ـ وجملى ؟ .. ماذا كان من امره ؟ ..

فقلت له بأقصى ما استطيع من قدرة على البيان بلهجته المحليـة ان دليلنا العربى خاطر بحياته لانقاذ ذلك الجمل . وهذا الطـــارقى

قليلا ، ثم شرع يروي لنا قصة حظه العاثر الذى جعل السيل يدهمه فكبت دابته ووقع عن ظهرها وحاول ان يتشبث بحبل الجمل ولكن السيل دفعه الى الجدار الصخرى فاصطدم راسه به واطلق تلك الصيحة التى سمعناها ، ثم غام كل شيء فى ناظريه ، ولم يلبث ان غاب عن رشده .. فهو لا يعى من امره بعد ذلك شيئا الى ان وجد نفسه بين ايدينا فى الكهف ..

واخذت اسأله عن اسمه فقال :

ـ اسمى « اج » ..

ـ وما اسم قبيلتك ؟ ..

ـ من قبيلة « تهات » ..

ـ انتم اذن من موالى قبيلة الرحالة الشريفة وهم سادة هذه المنطقة ..

وبدا على « اج » الامتعاض لهذا التدقيق ، ولكنى استطردت قائلا :

ـ ومبلغ علمى ان قبيلة « تهات » تقيم فى موضع بعيد عن هذا الموضع .. فما الذى اتى بك الى هنا ؟ ..

ـ كانت وجهتى الشيخ صلاح ..

ـ وما الذى حملك على الذهاب الى هناك ؟ ..

ورايته يفتح فمه ليجيب ، بيد أن الكلمات توقفت فى حلقه ، واضطربت نظراته ، وارتعدت يده وهو يحملق فى شيء أمامه من وراء كتفى . ونظرنا أنا و « مورانج » الى ذلك الموضع الذى ركز عليه نظراته ، فاذا به يحدق فى تلك النقوش الغريبة التى كنا نتحدث بصددها انا و « مورانج » حينما سمعنا صرخته ..

واثار هذا استغرابى ، كما اثار فضول « مورانج » فسأله بلهفة :

ـ اتعرف هذا النقش يا رجل ؟ ..

وظل الرجل صامتا ، ولكن عينيه ومضتا ، فعاد « مورانج » الى تكرار سؤاله بمزيد من اللهفة والالحاح .. ولكن الطارقى الشيخ لم يخرج بالصمت لا او نعم . فقال « مورانج » :

ـ اليس نطق هذه الكلمة انتينيا ؟ ..

فقال الطارقى وكانه يردد كالببغاء ما سمع :

ـ انتينيا ..

وسكت بعدها لايفتح فمه .. فاستولى على غضب شديد ، وصرخت فى وجه الرجل قائلا :

ـ ان النقيب يكلمك .. فيجب ان ترد عليه ..

وحول الطارقى نظراته الى .. وحسبته سيقول شيئا ، بيد ان نظراته لم تلبث ان تجمدت ، بل واحسست ايضا ان وجهه تجمد كذلك من تحت لثامه وهو ينظر الى فوهة الكهف ، فنظرت انا و « مورانج » الى هناك ايضا ..

وعند فوهة الكهف راينا « ابو جمة » يقف متهالكا من الاعياء ، حزين النظرات ، لاهث الانفاس ، بعد ان ظل يكافح ساعة طويلة لانقاذ الجمل من غير جدوى



الفصل الثامن

تعـــديـــل

وخيل الى أن التقاء نظرات « اج » و « ابو جمة » كان مشحونا برجفة ، بادر كل منهما الى اخفاء معالمها بسرعة عن عيوننا ..

وكان « ابو جمة » من قبيلة اخرى ، وليس من المستبعد ان تكون بين القبيلتين عداوات وتارات . وايا كان الامر ، فقد قررت بينى وبين نفسى أن استفسر عندما تسنح أول فرصة للانفراد بـ « ابو جمة » عن ذلك الوافد على مجموعتنا الذى انقذناه من الهلاك ، وعن سر توجس كل منهما من الاخر ..

وكان طبيعيا بعد تلك المغامرة الخطرة والمجهود الشاق الذى بذلناه فى هذا اليوم العصيب الا نبرح مكاننا ، فاستقر رأينا على تمضية الليلة فى ذلك الكهف المرتفع الى ان ينخفض مستوى المياه فتتسرب الى جهات اخرى حيث تمتصها الرمال .. وهكذا بتنا ليلتنا هناك ..

وما أن طلعت شمس اليوم التالى وتسربت الى الكهف حتى نهضت من نومى وبسطت أمامى الخريطة لاعرف الطريق التى سنسلكها فى ذلك اليوم . وبينما أنا منصرف الى هذا العمل اقترب « مورانج » منى ، فلما رفعت وجهى اليه قرأت على محياه شائبة من الهم ، فقلت له :

ــ يبدو لى من استطلاع الخريطة أننا سنصل الى الشيخ صلاح فى ظرف ثلاثة ايام على الاكثر .. هذا اذا صارت الامور كما ينبغى.. وعندئذ تمضى الى وجهتك

ــ قد لا أصحبك الى الشيخ صلاح ..

ـ ماذا تعنى ؟ ..

ـ لقد ادخلت تعديلا طفيفا على خطتى كى اتمكن قبل الوصول الى الشيخ صلاح من التوغل داخل منطقة جبال الحجار ..

وادهشنى ذلك ، ولم اخف عنه دهشتى ، وراحت ميناى تفتشان عن الطارقى « اج » الذى كان سحابة اليوم السابق يتحدث الى « مورانج » بعد افاقته .. ورايته منصرفا الى اصلاح خفيه بخيط منحه اياه « ابو جمة » .. ولم يكترث بما بينى وبين « مورانج » من حديث حتى انه لم يحاول اختلاس النظر الينا ..

وادرك « مورانج » معنى نظراتى ، فقال لى :

ـ ان هـذا الطارقى حدثنى عن مكان به كهوف كثيرة الى جهة الغرب ، وفى هذه الكهوف نقوش شبيهة بهذا النقش ، وهى على الطريق الى طميسة ولا تبعد عن هنا اكثر من مائتى كيلو متر .. وهذا يختصر كثيرا من المسافة التى كنت ساقطعها بعد الافتراق عنك فى الشيخ صلاح كى اصل الى طميسة . وهذا ايضا سبب اضافى شجعنى على تغيير خطتى ..

ـ هكذا اذن ؟ .. ومتى ازمعت ان تفترق عنى ؟ ..

ـ ان الطريق الجديد تتفرع على بعد اربعة اميال من هنا .. فمن الاوفق ان نفترق اليوم عند انشعاب الطريق .. ولكن ساكون بحاجة الى جمل يركبه دليلى الذى فقد جمله كما تعلم ..

ـ فى وسعه ان يركب الجمل الذى يحمل امتعتك ..

ثم ساد الصمت الثقيل بيننا ، وزاد شعور كل منا بالضيق لاقتراب لحظة الفراق .. ولكنى تشاغلت بدراسة الخريطة . واخذت انظر الى منطقة جبال الحجار على الخريطة فاجد فيها اماكن غير محددة المعالم تركت بيضاء وسط الجبال السوداء . الامر الذى اقلقنى على صديقى من جهة وزاد فضولى الى المعرفة من جهة اخرى، فقلت له :

ـ هل انت واثق انك بعد زيارة هذه الكهوف الغريبة ستواصل طريقك الى طميسة ؟ ..

وادهشه استفسارى فسالنى :

ـ ولماذا تسال ؟ ..

– لانك ان كنت واثقا من ذلك ، وما لم تكن مرافقتى اياك تثقل عليك فسوف اذهب معك ، لان المائتى كيلو متر ليست مسافة ذات بال بالنسبة لى ما دمت فى النهاية سأصل الى الشيخ صلاح عن طريق الجنوب ..

– ولكن لماذا تجشم نفسك هذا العناء ؟ ..

– لان لدى حاسة سادسة ياصديقى أرهفتها عندى المعيشة الطويلة فى الصحراء . وهذه الحاسة السادسة تحدثنى بان ثمة خطرا مايحدق بنا . ولعلك شهدت شيئا من آثار هذه الحاسة السادسة صباح أمس عندما أنذرتك بهبوب العاصفة .. وانت قد تكون عالما فى النقوش والجيولوجيا ولكنك بالتأكيد لست خبيرا بما تنطوى عليه منطقة الحجار من المفاجآت والاخطار .. وقلبى لايطاوعنى على ان اتركك تتعرض لهذه المخاطر بمفردك .. ولذا سآتى معك ..

– ولكن سوف لا اكون بمفردى .. معى دليل طارقى ..

ولم أرد على هذا الكلام ، بل نظرت الى « اج » الذى كان لم يزل منصرفا الى اصلاح خفيه ، وقلت له :

– هل سمعت يا « اج » حديثى أنا والنقيب ؟ ..

وبهدوء ، ومن غير أن يرفع عينيه ، اجابنى :

– أجل ..

– اعلم اذن اننى ساكون معه ، وعليك الآن ان تخبرنى عن موقع ذلك المكان الذى عرضت على النقيب ان ترشده اليه ؟ ..

فقال الطارقى ببرود :

– لست انا الذى عرضت عليه الذهاب الى هناك .. بل هو الذى اراد منى ان اكون دليله ..

– اين المكان على كل حال ؟ ..

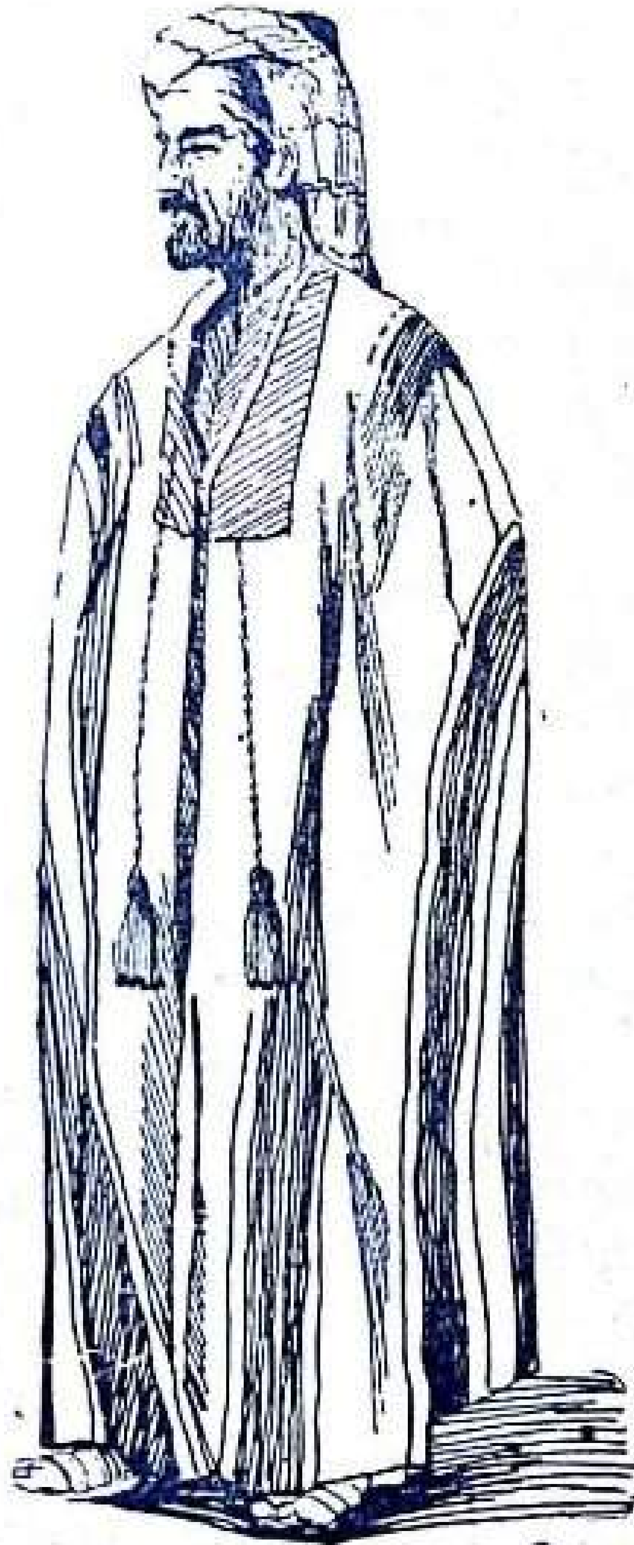
– ان الكهوف التى بها مثل هذه النقوش يقتضى الوصول اليها السير جنوبا وسط الجبال مدة ثلاثة ايام . وسيكون السير شاقا جدا فى اول الامر ثم تأخذ الطريق فى التحسن الى أن تنتهى عند طميسه ..

– وبخصوص الماء ؟ ..

– توجد فى الطريق آبار ماء عذب يستقى منها الناس . واهل هذه المنطقة من الطوارق بينهم وبين الفرنسيين مودة ..


فقال الطارقي
ببرود :
ـ لست انا الذي
عرضتعليه الذهاب
الى هناك .. بل هو
الذي اراد مني ان
اكون دليله ..

ـ وهل انت على دراية تامة بالطريق ؟ ..
وباستخفاف اجابني :
كيف لا وقد قطعتها اكثر من عشرين مرة جيئة وذهابا ..
ـ اذن هيا بنا .. !



الفصل التاسع

لـيس هنـا

مضت ساعتان فى صمت تام ونحن نسير ، فلم أوجه الخطاب الى « مورانج » لانى كنت منصرفا الى ما يعتمل فى نفسى من سخط على هذه المغامرة الطائشة التى أقدمنا عليها ·· فليس من التبصر فى شيء ان نقتحم هكذا تلك المنطقة من الصحراء التى تكتنفها المجـاهل وتعتبر أشد المناطق خطرا على الرجل الاوربى · فلم يعرف الفرنسيون منطقة تصدت لزحفهم وتوغلهم كهذه المنطقة حتى صار اسم جبال الحجـار مرادفا فى الاذهان للرعب والخطر··ولكن مادمت قد وعدت بالمشاركة فى هذه المخاطرة فلا سبيل لى الى التراجع منها · ومادمت عاجزا عن التراجع ، فأى خير فى ان افتح فمى بين الفينة والفينة لاعبر عن سخطى وضيقى ؟ ··

ثم ان هناك عاملا آخر جعلنى اكتم مابى من سخط ، وهو ان رائحة الخطر نفسها وروح المغامرة استولتا على فصرت اتطلع الى هذه الرحلة المجهولة العواقب كالمسحور ، وقد ثار فى الفضول كى اتعرف على ما تكنه هذه الصخور السوداء الكالحة ، وهذه الوهاد المجهولة من اسرار كانت السبب حتى اليوم فى القضاء على الرحالة الذين ارادوا اجتلاء غوامضها ·· فجعل صوت من اعماقى يحدثنى اننا سـنمضى قدما ، وسنمضى مهما كانت العاقبة ··

ووجدت الصمت بيننا قد طال ، ففاتحت « مورانج » قائلا :

ـ هل تعتقد حقاً ان مثل هذه النقوش التى تسعى اليها تستحق ما نتكبده من المشقة والخطر ؟ ··

وكأنما كان « مورانج » ينتظر هذه المفاتحة ليجد منفسا لما يكنه من

ضيق وحرج فى محاولة اقناعى بفكرته ، فانبرى يتكلم فى حماسة من يرى غايته المحققة نصب عينيه :

ـ ينبغى ان تعلم ياصاح انه ما من نقش من النقوش اليونانيةامكن من قبل العثور عليه فى هذه الصحراء على هذا القرب من خط الاستواء. وكان المفهوم ان النفوذ اليونانى تطرق الى تونس والجزائر ، ولكن لم يكن مفروضا حتى الآن انه وصل الى منطقة الحجار ..

ـ ولكن النقش ليس مكتوبا باللغة اليونانية ..

ـ انه لفظ يونانى رغم انه منقوش باللغة المحلية .. وهذا ادعى الى زيادة الاهتمام بهذا الكشف ..

ـ ولكن ما معنى كلمة انتينيا هذه ؟ ..

ـ هذه الكلمة لايمكن الا ان تكون اسم شخص من الاشخاص .. ولكنى لاازيد عنك معرفة بكنه ذلك الشخص ، الا ان اطمع فى نهاية هذه الرحلة فى العثور على مزيد من النقوش تقلل من جهلى فى هذا المجال ..

ـ أليس فى وسعك عن طريق الاشتقاق ان تصل الى معنى لهذا الاسم ؟ ..

ـ هذه مسألة محيرة لان أصل هذه الكلمة متشعب بحيث نستطيع أن نقول انها قد ترجع الى اكثر من عشرين أصلا يختلف بعضها عن بعض . أضف الى هذا ان الحروف المحلية تختلف عن الحروف الاغريقية مما يزيد شقة الخلاف والتأويل .. وليس بين يدى وأنا أمامك هنا ـ فوق ظهر هذا البعير ـ قاموس واف فى اللغة الاغريقية واشتقاقاتها ، ولكن فى استطاعتى على الجملة ان أقول ان الاسم لامرأة

ـ وهل معرفة أصل هذه الكلمة يستحق كل هذه المخاطرة ؟ ..

ـ لا تنسى يا صديقى اننى خادم للعلم .. وانى سأجمع اقصى ما استطيع من المعلومات العلمية لاضعها تحت تصرف زملائى واساتذتى وعلى رأسهم الاب « جيرانجر » .. ففى استطاعته ان يصل من هذه المعلومات الى حقائق يقصر عنها علمى الهزيل

واتفق فى هذا الوقت ان وقع من فوق أحد الجمال التى تحمل الامتعة جانب مما يحمله لان السيور التى تربط الحمل والرحال الى الجمل لم تكن محكمة كل الاحكام مما جعل الرحل يهتز ويميل .. وبادر



« اج » فنزل عن ظهر جمله وراح يساعد « ابوجمة » فى احكام ربط السيور واعادة الاحمال الى مواضعها ..

ولما فرغ « اج » من ذلك لحق بـ « مورانج » فى المقدمة ، وانتهزت انا الفرصة فتأخرت بجملى ومشيت الى الجمل الذى يركبه «ابوجمة» وقلت له :

ـ عليك متى وقفنا عند أول محطة للراحة أن تعيد ربط سيور الجمال ربطا شديدا لانها ستخترق الجبل ..

وتطلع « ابوجمة » الى فى دهشة بالغة ، فعجبت لدهشته لانى كنت اظن ان « اج » قد اخبره بما دخل على خطة سيرنا من تعديل ، واضطررت ازاء ذلك ان اتولى انا اخباره قائلا :

ـ سوف لا نتجه الى الشيخ صلاح عن طريق الوادى الابيض كما كان مفروضا ..

ـ من اى طريق سنذهب اذن يا سيدى الملازم ؟

ـ اننا سنتجه جنوبا فى البوابة نحو جبال الحجار ونخترقها ..

وذهل مرشدنا « ابو جمة » الطيب ، وقال :

ـ جبال الحجار ؟ .. ولكن هذا مستحيل ..

ـ مستحيل لماذا ؟ ..

ـ لانى لست على دراية بهذه الطريق ..

ـ ولكننا لا نعتمد عليك فى ارشادنا ..

ـ من اذن ... ؟

ـ سيكون مرشدنا « اج » ..

وصرخ « ابوجمة » صرخة ذعر وهو يكرر اسم الطارقى بدهشة واستنكار ، وينظر نحوه نظرات ملؤها الجزع ..

وكانت المسافة بين « اج » حيث يسير بجوار « مورانج » وبيننا نحو عشرة أمتار .. وكان الاثنان منهمكين فى حديث منخفض ، فأدركت ان « مورانج » يكلم « اج » حتما عن الامر الذى يشغل باله دون سواه وهو موضوع النقوش . ومع هذا لم يكن من المستحيل على « اج » ان يسمع اطراف حديثى مع « ابوجمة » ..

ورجعت طرفى الى دليلنا ووجهه المكفهر ، وسألته همسا :

ـ ماذا بك يا « ابوجمة » ؟ ..

فأسرع « ابوجمة » يقول بصوت خفيض :

– ارجوك يا سيدى الملازم .. فلنكف عن الكلام هنا .. لنرجىء هذا الحديث الى ساعة الغروب عندما ننيخ الجمال للراحة . وسانتهز فرصة انشغاله بالصلاة لاقول لك كل شيء . اما هنا فمستحيل .. ولا يغرنك انه يتحدث الى النقيب ، انه يستطيع فى الوقت نفسه ان يصغى لكل كلمة نقولها .. أما الآن فاتركنى من فضلك يا سيدى الملازم وسر مع النقيب ..

واسرعت بجملى مبتعدا عن « ابوجمة » وانا لا أملك نفسى من الدهشة لمسلكه الغريب ..



الفصل العاشر

العشـــاء الأخـير

ظل « اج » يمشى فى الطليعة بقية ذلك النهار حتى اذا ناهزت الساعة الخامسة مساء كف « اج » عن المسير ، ثم أناخ جملة ، وترجل قائلا لنا :

ـ ها نحن قد وصلنا ..

ولست ادرى كيف أصف ذلك المكان لان وقعـــــه فى النفس كان متناقضا ، فهو مكان جميل وقابض للنفس فى ان واحد . وكيف لا يكون كذلك وعن يســـارنا حائط غريب الشكل من احجار الجرانيت تخترق ذروته الرمادية اللون قبة السماء التى صبغها الغروب باللون الاحمر القانى . ويخترق هذا الحائط الصلب من الجـــرانيت درب متعرج يخترقه من اسفل الى اعلى حتى يصل الى مسافة لا تقل عن ألف قدم . وهو فى تعرجه متفاوت العرض يضيق جدا فى بعض المواضع . ويتسع فى مواضع اخرى حتى يكاد يسمح بمرور ثلاثة جمال متجاورة فى آن واحد

وأشار الطارقى « اج » الى ذلك الحائط الجـرانيتى قائلا مـــرة اخـــرى :

ـ ها هو ذا الموضع ..

ونظرت من خلفى فاذا الطريق التى قطعناها تتلوى موغلة نحـــو الغرب فكأنها فى نور النهار الجانح الى الغروب شريط مطموس المعالم الا انه مأمون الجانب مطروق للسالكين . مأهول بالمحطـــات والآبار المحددة بدقة على الخرائط .. أما هذه الطريق الاخرى التى تواجهنا الان فجدار مسمط داكن يرتسم على سماء أخذ لونها الاحمر يضرب الى ظلمة الغسق ..

وتولانى التوجس ، فنظرت الى « مورانج » متسائلا ، فقال بهدوء وبساطة :

ــ علينا ان نتوقف هنا لان « اج » يرى ان نستريح قليلا ونأخذ مئونة كاملة من الماء ..

وهكذا صار علينا ان نقف امام ذلك الحائط الجبل الــــذى يخفى وراءه المجهول ، فنقضى ليلتنا هناك قبل ان نشرع فى اقتحامه عند الصـــباح ..

وفى ركن مظلم من الجبل غدير صاف ينتهى اليه جدول رقراق ينحدر من أعلى .. وحول شواطئه هنا اشجار متناثرة ومجموعات من النبات ..

وكانت جمالنا أول من تنبه الى وجود هذه الخضرة فمضت تأكل مما حولها وهى مقيدة القوائم .. فى حين انصرف دليلنا الطيب « ابو جمة » يعد مائدة العشاء فاختار صخرة كبيرة مستوية على السطح تقريبا فرتب فوقها أدوات المائدة النحاسية وفتح بضعة علب من الاطعمة المحفوظة ، ووضع فى الوسط طبقا كبيرا من الخس الطازج جمعه من بين النباتات التى تحف بالجدول الرقراق ..

وكنت أرقب « ابو جمة » من بعيد ، فلم يفتنى ادراك ما فى حركاته من اضطراب يحاول اخفاءه . وليس من دأب العربى ان يكون سريع الاضطراب ، فلا بد أن ما يخالجه من الخوف لا يستهان به ..

وانحرف « ابو جمة » نحوى متظاهرا بأنه يقدم الى صحفة . واومأ خلسة الى ذلك الممر المعتم الصاعد المتلوى فى الجبل وغمغم قائلا :

ــ هذا هو المنفذ الى بلاد الرعب ! ..

وتنبه « مورانج » الى انه يقول شيئا فسألنى :

ــ ما هذا الذى يقول ؟ ..

ــ يقول أنها بلاد الرعب ..

ــ ماذا يعنى ؟ ..

ــ يعنى ان هذا هو الاسم الذى يطلقه العرب على بلاد الحجار ..

وانتحى « ابو جمة » جانبا كى أتناول طعامى انا والنقيب بمفردنا ، ووضع بين يديه ــ وهو جالس القرفصاء ــ بضعة اوراق من الخس راح يأكلها ليرطب بها حلقه . اما « اج » فكان يرقب ذلك كله بهدوء ،

ولا يبدو عليه شيء الى أن رأى قرص الشمس يغيب تماما .. فنهض واقفا واتجه الى الجدول وفرش برنصه الازرق على الارض ، ثم انصرف الى اداء الصلاة ..

وعلق « مورانج » على ذلك قائلا :

ـ لم يكن يخطر ببالى أن الطوارق يحافظون على طقوس الديانة وشعائرها بهذه الدقة ..

ـ وكذلك انا ..

قلتها على عجل لانى رأيت ان هذه هى اللحظة الوحيدة المناسبة كى يكاشفنى « ابو جمة » بما عنده كما وعدنى ، و « اج » منصرف بوجهه نحو القبلة فى مكة ليؤدى شعائر الصلاة

ونظرت نحو « ابو جمة » فوجدته غير منتبه الى فهتفت به :

ـ هيا معى يا « ابو جمة » الى حيث ربطت جملى فانى أريد من جرابى شيئا ..

وفى هذه اللحظات كان « اج » منصرفا تمام الانصراف الى صلاته .. واذا « ابو جمة » لا يرد على ندائى ولا يتحرك ..

وفى اللحظة التالية تصاعد منه انين ازعجنى انا و « مورانج » فوثبنا قائمين واسرعنا نحوه . وفى الوقت نفسه تقريبا ، لحق بنا هناك « اج » وقد نبهه الانين من صلاته ..

ـ وتلقف « مورانج » « ابو جمة » بين ذراعيه ، فاذا بالمسكين يشهق على الفور ويغمض عينيه وتتثلج اطرافه ، وكنت ممسكا باحدى يديه .. أما يده الاخرى فكان قد تناولها « اج » وراح كل منا يحاول أن يفهم ما حدث ..

وفجأة وقع نظر « اج » على الصحفة التى كان « ابو جمة » يحملها فوق حجره وبها بقايا الخس ، وقد انقلبت هذه الصحفة على الارض ، فارتعد « اج » لمرآها » ثم انقض على اوراق الخس وراح يقلبها بين يديه واحدة واحدة ثم اطلق صيحة كصيحة الحيوان الجـــريح ، فهتف « مورانج » :

ـ وماذا جرى لهذا الآخر ايضا ؟ ..

ولم اجبه لانى كنت مشغولا بتتبع « اج » الذى اخذ يجرى نحـــو المصطبة الحجرية التى فوقها طعامى أنا و « مورانج » حيث انقض على

صفحة الخس التى لم نكن مددنا اليها ايدينا بعد لان صلاة « مورانج » التقليدية على الطعام قد عطلت شروعنا فى تناوله ..

واقبل الطارقى « اج » نحونا بصحفة الخس وهو يلهث ، وصاح وهو يقربه من اعيننا :

ـ خس برى من النوع السام ! ..

وانتابتنى انا و « مورانج » رجفة شديدة .. فكل من له معرفة بالصحراء لابد قد سمع عن ذلك النبات الجهنمى الذى استخدمته قبائل هذه المنطقة من الطوارق للقضاء على كثير من البعثات الفرنسية ومنها بعثة « فلاترز » فكان فعل هذا النبات بمظهره البرىء أفتك من سيوف الطوارق وبنادقهم

وظل الطارقى « اج » واقفا وفى يده الخس السام يحملق فينا بطوله الفارع ، وقد ارتسمت قامته الطويلة على صفحة السماء البنفسجية

وعدنا الى « ابو جمة » نبذل محاولات يائسة فى أنقاذه .. بيد ان الخس السام كان اقوى من جهودنا جميعا ..

ولم يفق « ابو جمة » من غيبوبته الى ان اسلم الروح فى منتصف الليل ..



الفصل الحادى عشر

بلاد الرعب

حفرنا قبرا لـ « أبو جمة » والاسى يمزقنا ، ثم ركع بجوار قبره النقيب « مورانج » وصلى صلاة حارة .. ولما نهض من صلاته شعرت انا المدنى الملحد ان لصلاة هذا الرجل التقى من التأثير مالا استطيع ان أقاومه ..

ومنذ الصباح شرعنا نخترق الممر المتعرج فى الجدار الصخرى .. فقضينا يومين وكأننا نسير فى مجاهل كوكب آخر غير مطروق . بل ما أشبه المناظر حولنا بتلك الصور التى تمثل كوكب القمر بما فيه من براكين خامدة وتلال ليس فيها أثر للحياة . بل اننا كنا نمشى فى بحر من الصمت لا يطرق فيه اسماعنا الا وقع قوائم رواحلنا الناعمة على تلك الصخور العتيقة ، فيتآكل بعضها وتتطاير منه قطع صغيرة الى اعماق الهاوية من تحتنا فيتردد لسقوطها دوى ..

والحق ان رحلتنا هذه كانت عجبا من العجب ولذلك اجتهدت فى البداية ان استعين بالبوصلة كى ارسم رسما تخطيطيا لاتجاهات الطريق ، بيد انى لم البث ان تبينت عبث محاولتى لان كثرة تلوى الجبال جعلتنى اخطىء فى تعرف حركات اخفاف الجمال واتجاهاتها الصحيحة ، فلم يسعنى الا ان اضع البوصلة جانبا ..

ومنذ هذه اللحظة أيقنت اننا بتنا جميعا تحت رحمة ذلك الطارقى الطويل « اج » الذى انقذناه يوما من الغرق ولم يبق لنا امل الا الثقة به ..

وكان « اج » طليعة ركبنا ، ومن ورائه « مورانج » .. وكنت انا امثل المؤخرة . ولو كنت فى ظروف نفسية سوية لاستطاعت الصخور

البركانية بانواعها العجيبة ان تستثير اهتمامى . ولكن هذه الطرائف الجيولوجية لم تحرك فى ساكنا لان عدوى جنون « مورانج » كانت قد انتقلت الى .. فلو فرضنا جدلا ان « مورانج » قال لى :

ـ ان المضى فى هذه الرحلة ضرب من الجنون .. فلنعد من حيث اتينا ولنفز من الغنيمة بالاياب ..

اذن لقلت له على الفور :

ـ انت وشأنك فى هذا .. لك ان تعود من حيث اتيت . اما انا فسأمضى فى هذه الطريق المجهولة حتى النهاية ! ..

فلما انقضى اليومان ، وحل المساء ، وجدنا انفسنا امام جبل اسود يرتفع عن مستوى المكان الذى كنا فيه بالفى متر تقريبا ، وبدا شكله لنا وكأنه قلعة من قلاع العصور الوسطى ذات ابراج شاهقة .. وأمام هذا الجبل الاسود بئر تحف بها اشجار قليلة هى بلاشك أول اشجار تقع عليها عيوننا منذ توغلنا فى جبال الحجار ..

وابصرنا مجموعة من الرجال حول البئر ومعهم جمالهم .. فلما رأونا تقاربوا فى توجس استعدادا للدفاع عن أنفسهم ضد الواغلين الاجانب ، ولكن « اج » طمأننا باشارة من يده ، ثم اتجه نحوهم وتبادل معهم كلمات لم نسمعها فاذا بهم يتنحون عن البئر تماما وهم ينظرون الى النقيب « مورانج » والى فى رهبة ، تاركين لنا حرية الانتفاع بالبئر كما نشاء ..

وزاد من عجبى اننى عندما اخرجت من جرابى عددا من الهدايا كى اقدمها لرئيس تلك الجماعة ، أبى قبولها وكأنه يتحاشى مجرد النظر الى ، ثم اسرعوا بالرحيل . وهو سلوك فيه من التحفظ مالم اتعوده فى تجاربى العديدة التى اتصلت فيها بعرب الصحراء . وازاء هذه الدهشة استوضحت « اج » قائلا :

ـ لقد لاحظت مفارقات عديدة فى هذا الموضوع يا « اج »

ـ مثل ماذا ؟ ..

ـ أول هذه المفارقات انهم عاملوك باحترام وهم من طوارق الاجالى، وهى قبيلة كما اعلم من اشرف القبائل فى حين ان طوارق تهات التى تنتمى اليها انت تعتبر من الموالى التابعين . وليست هذه تقاليد الصحراء فى رعاية الانساب وفوارق القبائل .. !

فومضت عينا « اج » من فوق لثامه وقال :
ــ اصبت !..
ــ فما المسألة اذن ؟..
ــ المسألة ... انى خدعتهم واخفتهم ..
ــ ماذا تعنى ؟ ..
ــ زعمت لهم أنك والنقيب ستمضيان معى الى جبل الجن .. وهو هذا الجبل الاسود الذى امامنا .. وكان اسمه كافيا لاثارة الرعب فى نفوسهم ، فكل سكان الحجار من الطوارق على اختلاف قبائلهم وطبقاتهم يغرقون رعبا من مجرد ذكر اسم ذلك الجبل كما رأيت الآن

وعندئذ قال « مورانج » :
ــ وهل ستقودنا فعلا الى جبل الجن ؟ ..
ــ أجل .. فالنقوش فى داخل كهوفه ..
ــ ولكنك لم تذكر لى ذلك فى البداية ..
ــ ولماذا كنت تريدنى أن اذكر ذلك لك .. انتم معاشر الفرنجة لاتخافون الجن مثلما يخافهم الطوارق .. بل انى اعلم انكم تسخرون من خرافات الطوارق فى هذا الشأن لانهم يتصورون الجن ذوى قرون فى جباههم وذيول من خلفهم وما الى ذلك
وقلت لـ « اج » باستغراب :
ــ وانت الست طارقيا ؟ ..
ــ بلى ..
ــ الست ترهب الجن ؟ ..
فابتسم « اج » وأشار الى مسبحة بيضاء معلقة فى عنقه ، وفى نهايتها كيس صغير من الجلد احمر اللون وقال :
ــ انى محصن من هؤلاء الجن بهذا الحجاب .. ثم ان على واجبا لابد من ادائه ..
ــ ماذا تعنى ؟ ..
ــ انكما انقذتمانى من الغرق فلابد لى ان اقوم بخدمتكما على النحو الذى تريدان .. وما دمتما تريدان مشاهدة نقوش جبل الجن فلابد أن انفذ رغبتكما متوكلا على الله ..

قال هذا الكلام بهدوء شديد ، ثم تركنا وجلس القرفصاء ، واخذ يدخن بهدوء غليونه الطويل المصنوع من الغاب

وعندئذ رايت النقيب « مورانج » يدنو منى ويقول بصوت خافت :

ـ ما اكثر الغرائب التى تتجمع حولنا ..

فأجبته بصوت أشد خفوتا :

ـ الزم الصمت وارهف اذنيك !..

وكان الجبل قد بدأ يرسل مع سكون الليل اصواتا غريبة اشبه بالانين المتقطع ، فنظرنا بدهشة صوب « اج » فاذا به مسـتـرسل فى تدخينة بوقار دون ان يبدى ادنى اكتراث لهذه الاصوات . ولما سألناه عنها قال ببساطة من غير ان يلتفت حوله :

ـ انها اصوات استيقاظ الجن مع سدول الليل ! ..

وكان بديهيا ان هذه الاصوات ناتجة فى الواقع من عوامل طبيعية نتيجة تغير درجات الحرارة داخل الشقوق العميقة بين الصخور .. بيد ان جهامة المنظر ووحشته جعلت لهذه الاصوات الطبيعية وقعـا شديد التاثير على نفوسنا واعصابنا ..

وخطرت لى فى هذه اللحظة آخر عبارة نطق بها فقيدنا « ابوجمة » وهو يشير الى تلك البلاد قائلا :

ـ بلاد الرعب ..

وسمعنى « مورانج » انطلق بهذه الكلمة ، فهز راسه مرجعا :

ـ بلاد الرعب ! ..

ولم تلبث تلك الموسيقى الرهيبة ان سكنت تماما عنـدما طلعت فى صفحة السماء الداكنة أول مجموعة من النجوم ...



الفصل الثانى عشر

الجــــنّ

اخذ « اج » فى سكون الليل يغنى غناء عجيبا ممدود النغمات ـ بلهجة قبيلته ـ اثار فى نفسى شجنا وضيقا .. وبعد أن كرر غناءه الحزين ثلاث مرات لم استطع مقاومة الانقباض الذى ملأ صدرى ، فهززت « اج » من كتفه وهو جالس القرفصاء يغنى ، وسألته فى نفاد صبر :

ـ اما لهذا من آخر ؟ ..

ـ ماذا تعنى ياسيدى الملازم ؟ ..

ـ اعنى حتى متى نستمر فى هذه الرحلة الموحشة كى نصـــل الى نقوشك الموعودة ؟ ..

فسكت قليلا ، ثم قال بهدوء غريب :

ـ لم يبق شىء ..

ـ ماذا تعنى ؟ ..

ـ اعنى اننا وصلنا الى مكان هذه النقوش !

ـ اتقول وصلنا يارجل ؟ . ثم ماذا يقعدك عن ارشادنا اليها ؟ .

ـ كنت انتظر ان تطلبوا الى ذلك ! ..

وسمع « مورانج » هذه المناقشة ، فانتفض واقبل يقول بحرارة :

ـ كهف النقوش ؟ . وصلنا اليه ؟

ـ طبعا .. انه على قيد خطوات ..

ـ اذن هيا بنا .. هيا بلا توقف ! ..

وحاولت ان اثنيه عن عزمه قائلا :

ـ الظلام سائد يا « مورانج » فكيف يمكن أن ترى شيئا دقيقا

كهذا فى داخل كهف .. ثم قد يكون الكهف بعيدا ..

فقال « اج » :

ـ انه غير بعيد .. لا يفصلنا عنه الا خمسمائة خطوة

ـ والظلام يارجل ؟ ..

ـ ارض الكهف مفروشة بالحشائش الجافة .. ساقدح زنادى واشعل النار فى تلك الحشائش فيتسنى للنقيب ان يرى كل مايريد وكاننا فى رابعة النهار ..

ـ ورواحلنا ؟ ..

ـ انها مقيدة الى مواضعها .. ثم اننا لن نطيل الغياب

ولم اجد بدا من الانقياد ، وقد تقدمنا « اج » ومن ورائه «مورانج» فى لهفة شديدة . ولاحظت ان العرق اخذ يتفصد من جبينى وعارضى ، واخذت اشجع نفسى واقنعها بانى لست خائفا .. والحقيقة ان مابى لم يكن خوفا وانما نوع من الدوار والحذر أصاب حواسى وانا اسمع غناء « اج » وهو يسير بين الصخور فى الطليعة ..

وفجاة وقف « اج » أمام فجوة فى الجبل حالكة السواد ، ثم أحنى راسه ودخل منها ـ ونحن فى أثره ـ فأحاطت بنا ظلمة الكهف من كل ناحية الى أن قدح « اج » زناده واشعل النار فى الاعشاب الجافة القريبة من مدخل الكهف ، فاذا لهب أصفر يتصاعد منه دخان كثيف حال بين اعيننا وتبين شىء مما حولنا ..

اما « اج » فعاد الى فوهة الكهف حيث جلس ينظر الى النجوم ، واخرج غليونه الطويل وراح يصعد منه بهدوء دخانا رمادى اللون ، وانصرفت عنه الى مراقبة « مورانج » فى الضوء الذى بدأ يصفو من الدخان بعض الشىء فرايت وجهه شاحبا من شدة اللهفة وهو فى مواجهة جدار من جدران الكهف يتأمل نقوشا لم أتبينها من مكانى بوضوح .. وكانت يداه ترتجفان ..

لاحظت ذلك كله فى شبه غشاوة .. وفى الوقت نفسه لاحظت انى اجد صعوبة فى ربط احساساتى وخواطرى وملاحظاتى بعضها ببعض فقلت لنفسى :

ـ أتراه مضطربا مثلى ؟ . ولماذا ؟ .

وفجأة سمعت « مورانج » يصيح بـ « اج » :

ـ ابتعد عن الفتحة كي يدخل الهواء .. ما اكثف هـــذا الدخان يا رجل ! ..

واستمر فى محاولة فك طلاسم تلك النقوش فترة اخرى ، ثم سمعت صوته من بين سحب الدخان يصيح :

ـ آه ! . هاهى اخيرا اتينيا ! .. ولكن النقش ليس محفورا فى الجدار وانما هو رسم أصفر قد لايزيد عمره على خمس سنوات ! .

ووضع كفيه على صدغيه ، وصاح بغضب :

ـ يالها من خديعة ! .

وأضحكنى غضبه فقلت له :

ـ خفف عنك ! . لا تغضب هكذا ! .

فانقض على واخذ يهزنى من كتفى بمزيد من الغيظ والدهشة وهو يقول لى :

ـ هل جننت ؟ ..

ـ لا تصرخ هكذا ..

فتأملنى قليلا ثم تركنى وجلس على صخرة قبالتى فى حين انصرف « اج » الى التدخين كما كان عند فتحة الكهف

واخذ « مورانج » ينظر حوله ـ بحيرة ودهشـــة وغضب ـ الى النار التى اخذ لهيبها يتضاءل فى كومة العشب ، ثم تناول بضعة من العشب لم تصل اليها النار وراح يفحصها فى الضـوء ، ثم القى بها فى اللهب وهو يضحك ويقول بصوت متغير :

ـ ما الطف هذا ! ..

ثم اتجه الى « اج » بخطوات مترنحة ، وقال له وهو يشـير الى اللهب :

ـ حشيش ؟ . اليس كذلك ؟ وما الطف رائحته ..

ووجدتنى لا اتمالك نفسى من القهقهة مع ادراكى فى الوقت نفسه ان هذا شىء لا يليق . وقلت بعربدة :

ـ الا ما الطف هذا حقا ..

واذا بـ « مورانج » فى حالة اشبـه بحالتى ، فقد سمعتـه يقول لـ « اج » :

ـ انت تدخن الحشيش فى غليونك .. اريد انا ايضا غليونا لادخن مثلك ..

وبهدوء ناوله الطارقى من بين طيات ثيابه غليونا نظر اليه «مورانج» بعجب وقال :

ـ غليون أوربى ! . ما اعجب هذا ! .

وقلت مكررا كلامه :

ـ غليون أوربى .. ما الطف هذا !

وصاح « مورانج » متهللا :

ـ ومنقوش عليه حرف « م » كأنه صنع خصيصا لى .. النقيب « مورانج » .. ما الطف هذا ..

وبهدوء تام قال « اج » مستدركا :

ـ بل النقيب « ميسون » ..

وضحكنا كلانا كأن هذا الاسم يثير الفكاهة ، وقلت :

ـ ما الطف هذا .. النقيب « ميسون » وبعثة العقيد « فلاترز » . الكل هلكوا عند البئر .. ما الطف هذا ! قتلوا « ميسون » واستولوا على غليونه هذا . لقد كان الصفير ابن الشيخ هو الذى قتل «ميسون» .. ما الطف هذا !

وبهدوئه المعهود ، قال « اج » :

ـ الصفير ابن الشيخ هو الذى قتله فعلا ..

ـ هل تعرف كيف قتله ؟ ..

ـ طبعا أعرف .. النقيب « ميسون » اتجه مع العقيد « فلاترز » نحو البئر لاكتشاف موقعه فدهمهما الطوارق . وامسك احدهم بزمام فرس « ميسون » .. وامسك الصفير ابن الشيخ بزمام فرس « فلاترز » .. ثم ضربه الصفير ابن الشيخ بسيفه فقتله . وشهر « ميسون » مسدسه فى الحال واطلق رصاصة على الصفير ابن الشيخ فأطاحت بثلاثة اصابع من يده اليسرى .. ولكن الصفير ابن الشيخ اسرع فأطاح براس « ميسون » بضربة واحدة من سيفه ..

ثم ضحك « اج » ضحكة رهيبة .. وعيوننا مركزة عليه وهو ممسك غليونه الطويل بيده اليسرى . فرأينا فيها اصبعين فقط .. وكانت هذه اول مرة الاحظ فيها ذلك ..

ويبدو ان « مورانج » لاحظ ذلك مثلى .. فقد سمعته يقول :

ـ وبعد ان قطعت راسه استوليت على غليونه وعلى بقية ما معه من

الامتعة ايها الصفير ابن الشيخ !

وصمت الصفير ابن الشيخ ، وظل يدخن فى صمت وهدوء .. اما انا و « موزانج » فاسترسلنا فى ضحك هستيرى والنـار من حولنا تخمد شيئا فشيئا ..

ولم نشعر بعد ذلك بشىء اذ يبدو ان الجن قامت بعملها خير قيام .. فعندما افقت رايت « موزانج » مربوطا فوق جمـل يمشى امام الجمل الذى ربطونى فوقه . ويبدو ان هؤلاء الجن لا يخلون من رحمة وشفقة ، فلو لم يربطونى جيدا لسقطت حتما من فوق الجمل ! ..

كل ما شعرت به بعد ذلك ان الطريق طويلة جدا ، واننى اريد ان انام ، واننا دخلنا فى نفق طويل معتم ثم خرجنا مرة أخرى الى الهواء الطلق تحت النجوم . ولكن ذلك لم يطل لاننا دخلنا دهليزا خانقا آخر ، ثم خرجنا بعد ذلك الى سماء الليل . وتعاقبت هـذه الحالة مرات لا أدرى عددها ، ولكنها كانت تثير فى نفسى رغبة شديدة فى الضحك ..

ما هذه الانوار ؟ . اهى نجوم كبيرة ؟ .

كلا .. بل هى انوار صناعية فعلا . وهاهو سلم عريض منحوت فى الجبل . ولكن كيف تستطيع الجبال ان تصعد السلالم ؟ كم هـذا مضحك حقا ! .

ولكن هذا الذى يصعد بى الدرج ليس جمـلا .. انه شىء آخـر يرتدى ثيابا بيضاء .. انه ليس من الجن اذ ليست له قرون ولا عين كبيرة فى وسط صدره .. انه رجل ضخم ..

و « موزانج » ؟ . لابد ان حالته النفسـية سيئة للغاية بعد ان تأكدت له بصورة واضحة جسامة استنتاجاته العلمية والتاريخيـة ، ولكنى اتمنى ان يترفق به من يحملونه فلا يسقط بجثته الضخمـة من هذا السلم الشاهق

ثم ما هذا الذى فوقنا ؟ . انه شىء يتوهج وسط سقف ضخم .. لابد انه مصباح كبير من البرونز . ولكنى مع ذلك لم اعد اتبين شيئا لان النوم يغلبنى على امرى . ليتهم يفكون قيودى لا سترخى وانـام فليست لى اى رغبة او قدرة على النزول لو فكوا قيودى ! ..

واكتنفنى الظلام وساد الصمت برهة وجيزة .. ثم سمعت اصوات كلام عجيب اشبه بحديث فى ناد للقمار فى أوربا .. كان احدهم يقول :

ـ انا مستعد للمراهنة بعشرة آلاف جنيه .. وهاأنذا اضعها على المائدة ! .

اين انا اذن ؟ . هل فى جبال الحجار ام فى بلد من بلاد الحضـــارة والعمران ؟ . وهل انا فى يقظة ام فى كابوس ؟



الفصل الثالث عشر

القاعة المستديرة

لم يكتب لى ان افتح جفنى الا بعد طلوع النهار .. فكان « مورانج » أول من خطر ببالى بطبيعة الحال . ولم استطع ان اتبين موضعه بقربى - لاول وهلة - بيد انى سمعت صوته وهو يبدى دهشته ليقظتى ، فهتفت باسمه واذا به يأتى الى من خلفى حرا طليقا . وقد ادهشنى ذلك فقلت له :

- كيف لم يشدوا وثاقك ؟ ..

- بل شدوه ولكن لم يحكموا شده ايها الصديق .. فقد كانت عنايتهم بى اقل من عنايتهم بك فاستطعت ان اتحلل من قيودى .. وغاظنى منه ذلك ، فقلت :

- ألم يكن فى وسعك - وقد تحللت من قيودك - أن تفك وثاقى ؟..

- خشيت ان أوقظك لو فعلت .. وكنت أنتظر يقظتك كى احل قيودك . وها انذا قد فعلت ..

وحاولت الوقوف واذا بى اترنح ، فابتسم « مورانج » قائلا :

- لعمرى لو اننا قضينا ليلة حمراء على نحو من الانحاء لما صار هذا حالنا فى الصباح .. ولكن « اج » كان شديد المكر بحيلة الحشيش التى لجأ اليها ..

فراجعته قائلا :

- لا تقل « اج » بل قل الصغير ابن الشيخ ..

وتريثت برهة ، ثم أخذت أحك جبهتى بيدى ، وسألته :

- ولكن اين ترانا الآن ؟ ..

فقال « مورانج » :

- هذا سؤال شديد التعقيد يا صاحبى .. فانا منذ افقت من

الكابوس الفظيع الذى بدأ فصله الاول فى كهف الحشيش وانتهى فصله الاخير عند السلالم والمصابيح النحاسية الملونة لتى تشبه جو الف ليلة وليلة ، وانا أعيش فى مفاجآت متصلة كل منها يثير الدهشة .. !

فنظرت الى « مورانج » متوسلا ، وتناولت يده وقلت له :

ـ ارجوك يا « مورانج » أن تقول لى ان هذا كله حلم ..

ونظرت حولى فاذا نحن فى قاعة دائرية قطرها خمسون قدما تقريبا، وارتفاعها خمسون اخرى ، ولها نافذة كبيرة تبدو منها سماء صافية الاديم .. وجدران القاعة وارضيتها وسقفها كلها من الرخام المجزع ومبطنة بصفائح من معدن غير مألوف أشد شحوبا من الذهب وأشد حلكة من الفضة ..

وزقزقة العصافير والطيور المفردة يحملها نسيم الصباح الذى كان يهب من النافذة الكبيرة هبوبا شديدا ..

واجتذبنى هذا النسيم البارد المحمل برائحة ندى الفجر ، فاتجهت نحو النافذة فى مشية مترنحة ووقفت انظر فلم اتمالك نفسى من اطلاق صيحة دهشة وافتتان ..

لقد الفيت نفسى فى شرفة معلقة فى الجو بارزة من جانب الجبل الاشم . ومن فوقى السماء بقبتها الزرقاء ، ومن دونى على مسافة خمسين مترا تقريبا جنة الله فى أرضه حقا تحف بها قمم عالية من جميع الجهات كأنها حلقات فى سياج محكم لا سبيل لاحد الى اختراقه ..

وفى هذه الجنة أشجار النخيل الباسقة ، وفى ظلها أشجار اخرى مما ينمو فى الواحات تحت حماية النخيل مثل شجر اللوز والبرتقال والليمون وأنواع اخرى لم استطع ان اتبينها من مكانى المرتفع ..

وبين الاشجار جدول ماء نمير يبدو ماؤه ازرق اللون ينبع من عين جارية تتدفق فى بحيرة تدرك العين من هذا الارتفاع مبلغ صفائها الشفاف .. والطيور تحلق وتحط على افنان هذه الاشجار ثم ترتفع فى الجو مرة أخرى فكأن هذه الجنة مزروعة فى قاع بئر أو قرار هاوية

وادركت سر برودة النسيم عندما رفعت نظرى الى قمم الجبال التى تحف بالهاوية من كل جانب فاذا بها مجللة بالثلج الناصع البياض

ولا عجب ان تبدو العين الصافية والجدول الازرق والنخيل الاخضر والثمار الذهبية ـ من تحت هذه الثلوج البيضاء ـ وكأنها لوحة بالغة

الجمال لا تستطيع الطاقة البشرية الضعيفة تحمل تاثيرها ، ولا سيما انى افقت لتوى من دوار عنيف أحدثه دخان الحشيش ، فاسندت رأسى الى حاجز النافذة وانا فى مستوى هذه الثلوج التى تكسو القمم واندفعت ابكى كالاطفال من غير خجل .. !

ولم يكن « مورانج » اقل طفولة منى ، ولكنه استيقظ قبلى فانفسح أمامه الوقت كى تألف عيناه هذا الجمال الباهر ، فاقبل على واخذ يربت كتفى ويهدىء روعى وعاد بى الى القاعة ، وهناك قال لى وهو ينطلق الى البهو الخارجى :

ـ انك لم تر شيئا بعد من المفاجآت التى رأيتها انا وانت نائم .. انظر جيدا ..

ودهشت مما رأيت فأخذت اردد اسمه كانى استنجد به ، ذلك انى لاحظت وجود اثاث اوربى مائة فى المائة فى ذلك البهو الغريب . وبين قطع الاثاث الاوربية حشايا ووسائد من الجلد صارخة الالوان على الطراز المعهود لدى الطوارق ، متناثرة فوق سجاجيد شرقية وايرانية ، وستائر من المخمل لم يخطر ببالى لشدة رهبتى وتهيبى ان ارفعها لارى ما خلفها

ومن فجوة فى الحائط رأيت خزانات كتب عامرة .. وفيما بينها على الجدران مجموعة كبيرة من نسخ متقنة لروائع الفن القديم . وهناك أيضا مائدة تكدست فوقها اكوام لا حصر لها من الاوراق والصحف والكتب . وكاد صوابى يطير عندما رأيت بينها اخر عدد من اعداد مجلة الآثار

وكان ذلك كافيا كى اتبادل مع « مورانج » نظرة دهشة لم نطق توترها ، فانفجرنا معا ضاحكين بجنون لحظات طويلة وكان « مورانج » أسبق منى الى تمالك نفسه واستخدام لسانه فقال :

ـ الحقيقة ان هذا كله شىء يطير العقل ..

ـ ما رأيك فى هذا حقا ؟ ..

ـ لا استطيع ان اكذب عليك يا صديقى العزيز فأقول انى افقه من هذا كله شيئا .. انى عاجز تماما عن حل طلاسم هذا اللغز .. والحقيقة ان ما اراه يزيدنى حيرة كلما فكرت فيه حتى انى اشعر كما لو كنت قاب قوسين او ادنى من الجنون ! ..

واستلقى « مورانج » فوق اريكة وثيرة ، واطلق العنان لضحكاته ٠٠
وانصرفت انا الى تقليب الاوراق وفجأة صحت :
ـ انظر ! ٠٠ هذه كتابة لاتينية ٠٠
ووثب « مورانج » الى وتناول الورقة وأخذ يطالعها بامعان ، ثم ظهرت على وجهه علائم العجب وقال :
ـ كاتب هذه الصفحة يعد بحثا علميا عن الجغرافيا القديمة
وعندئذ صاح صوت اجش هادر صادر من البهو الكبير :
ـ لا تعبث بأوراقى من فضلك يا سيدى ! ٠٠
فالتفتنا كلانا واذا باحدى الستائر الفاخرة تنفرج ليدخل علينا اخر شخص كنا نتوقع ان نراه ٠٠



الفصل الرابع عشر

كرنيـــاس

كان الرجل الذى تراءى لعينينا قصير القامة ، أصلع الراس ، أصفر المحيا ، يتخذ نظارة ضخمة خضراء اللون ، وله لحية دب اليها الشيب ، من تحتها رباط عنق ضخم احمر اللون ، ويلبس بنطلونا أبيض فضفافا و « بالغة » مغربية حمراء ، ويضع فى زهو وســـام المعارف من طبقة ضابط

ولفرط دهشة « مورانج » سقطت الورقة من يده ، فتناولها الرجل القصير بعناية ، وهز جرسا صغيرا وهو ينظر الينا شذرا .. فبرز من الستار طارقى عملاق يرتدى ثيابا بيضاء هى الثياب التى يرتديها العبيد والخدم عادة فى الصحراء . واستفسر منه الرجل القصير عن سر دخولنا الى المكتبة ، فقال له الخادم الطارقى بخشوع :

ــ لقد عاد الصغير ابن الشيخ قبل موعده المنتظر بكثير .. وكان محنطو الجثث حين عاد بالامس لم يفرغوا بعد من مهمتهم فجئنا بهما الى هنا . ولكن هذا بصفة مؤقتة فقط

ــ وهو كذلك .. انصرف ..

ــ ان المائدة قد اعدت يا سيدى ..

ــ اذهب الآن ..

وجلس الرجل مقطبا الى مكتبه واخذ يتصفح أوراقه ، فغاظنى ذلك واتجهت اليه قائلا :

ــ أنا وزميلى نجهل اين نحن كما نجهل شخصيتك . ولكننا نراك فرنسيا تحمل وساما محترما من أوسمتنا اتحلى انا وزميلى بمثله ..

ــ وبعد ؟ ..

ـ وبعد ؟ .. ان العبد الذى كان هنا ذكر اسم الصغير ابن الشيخ قاتل العقيد « فلاترز » .. فهل تعرف ذلك ؟

ـ نعم .. ولكن لا شأن لى بهذا .

ـ لاشأن لك ؟ .. من انت ؟ ..

ـ عجبا ! .. انا هنا فى بيتى فكيف تهينني وتزعجنى ؟

وعندئذ تقدم « مورانج » قائلا :

ـ اصفح عن طيش زميلى الشاب يا سيدى فانت رجل رزين متبحر فى العلم وتقدر ضغط الظروف على اعصابنا ..

ـ انا مدرك طبعا ان معظم الضباط الفرنسيين حمقى وسفهاء !..

ـ اذكرك يا سيدى بأننى ضابط ايضا .. ولكنى مدرك وضاعة هذه الصفة بالقياس الى العلم الغزير الذى رأيت دلائله فى نظرة واحدة الى هذه الأوراق . وقد ادركت ايضا انك من القلائل فى العالم الذين يبحثون فى جغرافيا العالم القديم مثل استاذى « بريليو » ..

ـ انت تلميذ « بريليو » ؟ .. ما أسعدنى بهذا . انك فى هذه الحالة يا سيدى لا بد ان تكون قد سمعت بموضوع البحث عن .. الاطلنتيد ..

ـ أوه .. طبعا ، طبعا .. وانا على صلة بابحاث « لانيوواربوا » ..

ـ ما أسعد حظى .. انت تحفة نادرة فعلا ايها النقيب . انت درة يتيمة بين الضباط .. ضابط عالم ؟! .. يا له من تناقض ! اسمح لى ان اقدم نفسى : « اتيين لوميج » . الحاصل على الاجريجسيون

وقدم « مورانج » نفسه وقدمنى .. فانتهزت الفرصة لاعيد استفسارى عن المكان والظروف التى نحن فيها . واوشك ان يرد الرجل القصير علينا ، لولا ان ناقوسا رن فى هذه اللحظة رنينا حادا ، فقال :

ـ هذا آخر انذار لنا للتوجه الى قاعة الطعام .. فقد فرغ صبر زميلينا . فانا وهذان كل من فى القصر من الموظفين الاجانب الدائمين . والآخران احدهما قسيس بروتستانتى ضيق الافق والآخر شيخ منحل ماجن يلعب الميسر ليل نهار مع الخدم الطوارق بعد ان علمهم شتى أنواع القمار . وهو الذى يدق الجرس بهذا العنف لاننا الآن فى منتصف العاشرة . وبعد نصف ساعة ، اى فى العاشرة تماما تبدأ

المقامرة .. فهيا بنا اولا لنأكل واعتقد انكما فى حاجة الى شيء من الطعام بالفعل ..

فقال « مورانج » :

ـ هذا صحيح .. هيا بنا يا سيدى ..

وتقدمنا مسيو « لوميج » فى دهليز كثير المنعطفات والصعود والهبوط .. تسوده العتمه لولا بعض المصابيح المتناثرة والمباخر التى يتصاعد منها عطر شرقى فواح . ومررنا فى طريقنا بكثير من الخدم الطوارق الصامتين فى ثيابهم البيضاء الى ان وقف مسيو « لوميج » أمام باب مكسو بذلك المعدن الحائل اللون الذى يبطن جدران المكتبة ، ففتحه لنا فاذا قاعة بها نافذة كبيرة تطل على المناظر الجبلية الواسعة لا على الحديقة الداخلية . وكانت المائدة على الطراز الشرقى فوق اسمطة أرضية ممدودة امام السجاجيد الفاخرة .. وأدوات المائدة عبارة عن كاسات من النحاس وأباريق من الفضة ، اما الوان الطعام نفسها فكان منظرها كافيا لتحريك الشهية

وقدمنا مسيو « لوميج » الى القس « سباردك » وهو من اهالى منشستر ، فحيانا بلطف وتحفظ من قمة انفه .. وهو رجل طويل نحيف كثير الاكل ، كثير الصمت ، ميال للكآبة . كما قدمنا ايضا الى الكونت « كازيمير بيلوفسكى » وهو رجل مرح لطيف متقدم فى السن جميل الطلعة كستنائى الشعر (عرفت فيما بعد انه يصبغه) يرتدى ثوبا أخضر له ياقة صفراء يعلوها وسام فضى كبير الحجم . وقد امر الكونت على ان اجلس بجانبه . وقدم لى أنواعا من النبيذ المصنوعة محليا وجدتها قوية بعض الشيء . ورأيت الكونت يكثر من الشراب ومن أكل اللحم والحلوى والفاكهة التى كانت عبارة عن اكوام من الفستق والرمان وعناقيد العنب والبطيخ والتمر والتين وكلها مثلجة بطبيعة الحال بسبب الارتفاع الشاهق

وبعد أن فرغنا من وجبة الافطار التى تعد أفخر وجبة افطار تناولناها فى حياتنا ، دعانا مسيو « لوميج » ان نصحبه الى المكتبة .. ولكن الكونت همس فى اذنى :

ـ أنت لا تصلح لمعاشرة هذا المخبول .. فتخلص من صحبته بأسرع وقت ، وتعال الى قاعة المقامرة ، وستجد العابا أعنف مما يجرى

فى مونت كارلو ..!

ولم يتسع لى الوقت للرد عليه لان مسيو « لوميج » كرر دعوته بغضب شــــديد :

ـ هيــا ايهــا الســادة ..

فلم يكن فى وسعنا أنا و «مورانج » الا ان نتبعه بسرعة كى نشبع فضولنا .. وما أن اصبحنا نحن الثلاثة فى المكتبة حتى قال لى « لوميج » :

ـ لقد سألتنى قبل الطعام يا سيدى اين انتما .. واكراما لصديقك العالم الجهبذ « مورانج » سأخبرك بهذا السر العظيم ..

ومد يده الى خوان كتب استخرج منه مجلدا واستطرد :

ـ انكما هنا فى الاسر .. وتحت رحمة امرأة هى ملكة هذه البلاد وسلطانة الحجار .. واسمها الملكة « انتينيا » ..

ثم فتح المجلد ، وقرأ فيه هذه العبارة :

ـ ينبغى الا تعجب اذا سمعتنى ادعو بعض البرابرة بأسماء الاغريق ! ..

فاكفهر وجه « مورانج » وسأله بلهفة :

ـ ما اسم هذا الــكتاب ؟ ..

فقــال « لوميج » بزهو شديد :

ـ هذا اعظم محاورات افلاطون واصعبها .. انه « كريزياس » او « الاطلنتيد » ..

ـ ولكن « كريزياس » محاورة لم تتم .. كتاب غير كامل

ـ هذا هو المفروض فى فرنسا وفى بلاد العالم اجمع .. اما هنا فى الحجار فالنسخة الوحيدة الكاملة .. وهاك هى ، ولك أن تفحصها بنفســك

وتناول « مورانج » المخطوط الفريد واخذ يفحصه بلهفة وجشع ، ثم قال :

ـ يبدو لى انه كامل فعلا .. ولكن ما العلاقة بين هذا الكتاب وبين الملكة « انتينيا » هــذه ؟

فقال « لوميج » بهدوء شديد :

ـ انه اقدس كتاب فى نظرها .. فهو الكتاب الذى يتضمن وثيقة

شرفها ويثبت سمو سلالتها التى لا نظير لها .. ف « اتينيا » هى ....

وتعجله « مورانج » قائلا :

– هى ... ؟

– سليلة اله البحر نبتون وآخر البشر المنحدرين عن الاطلنتيد ...!



الفصل الخامس عشر

الطــوفــان

كان مسيو « لوميج » يوجه حديثه كله الى « مورانج » لانه الوحيد الذى كان يعترف بوجوده ، اما انا فلا استحق هذا الشرف ، واستطرد يقول لصاحبى :

ـ ما اكثر الضباط الفرنسيين وغير الفرنسيين الذين استحضرتهم « انتينيا » الى هنا لغرض فى نفسها ، ولكنك اول شخص أفضى اليه بهذه الحقيقة الخفية نظرا لعلمك واكراما لذكرى أستاذك العظيم « بريلبو » ..

واستدعى الخادم وأمره باحضار قهوة لنا ، ثم قدم الينا صندوقا كثير الزخارف به سجائر مصرية معطرة قائلا :

ـ انا شخصيا لا أتعاطى الدخان .. ولكن الملكة « انتينيا » تأتى أحيانا الى هنا . وهذا هو نوع السجائر الذى تفضله على غيره ..

ثم استرخى كل منا فى مقعده ، وشمر المسيو «لوميج» عن ساعديه وبدأ ايضاحه المرتقب :

« لابد لى أولا من بيان الصلة بينى وبين هذا المكان بصفة شخصية قبل الدخول فى لباب الموضوع .. فاننى بعد نجاحى فى مسابقة الاجريجاسيون فى التاريخ والجغرافيا عينت مدرسا فى مدرسة الليسيه بليون. وهناك شغفت بتاريخ افريقيا القديم وفكرت فى رسالة طريفة للدكتوراه عن البطلة الطارقية التى قاومت الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ووجه الشبه بينها وبين بطلتنا الفرنسية « جان دارك » التى قاومت الغزاة الانجليز فقدمت الى السوربون طلب لتسجيل هذه الرسالة بعنوان « جان دارك والطوارق » . ولكن

شيئا ما فى هذا العنوان اثار الضحك والاستخفاف بى . واذا بمدير الليسية يدعونى ويعرض على اجازة سنتين بنصف مرتب - اى احالة الى الاستيداع - كى اريح اعصابى واستجم !.. ولم اكن اشعر بأى انحراف فى صحتى فرفضت بحدة . وسكت المدير .. وبعد اسبوعين فوجئت بأمر من الوزير بنقلى الى ليسيه تعتبر منفى حقيقيا اذ تقع فى منطقة برارى اللاند الموحشة البعيدة عن كل عمران ، وليس ايها اى جو علمى او فكرى اطلاقا .. فلم يكن امامى هناك الا التمرغ والاكل وافراط الشراب . فلم تمض الا بضعة اشهر حتى حل النقرس ضيفا ثقيلا على مفاصلى ، وانتهزت فرصة اول عطلة صيفية وتوجهت الى داكس لاستشفى بمياهها المعدنية وجفافها من آلامى ..

« والواقع ان سلوكى الاحمق من حيث ادمان الشراب والافراط فى اكل البط نوع من العربدة يؤسف له ، ولكن عذرى ان الصدمة التى تلقيتها كانت شديدة لاتقل بحال من الاحوال عن جرح الكرامة الذى يشعر به أى عاشق وجهت اليه المرأة التى يحبها اهانة شديدة تنطوى على الاحتقار ..

« المهم اننى عندما نزلت فى داكس اتخذت لى حجرة مفروشة فى بنسيون على الشاطىء .. وكانت الخادم التى تقوم على تنظيف حجرتى وغيرها من حجر النزلاء - وكلهم من الرجال المتقدمين فى الســن وارباب المعاشات - امراة عجوز طيبة القلب حمقاء أدين لحماقتها بأهم حادث فى حياتى . فقد كان يسكن الحجرة المجاورة لحجرتى وكيل نيابة متقاعد ، هو فى الوقت نفســه رئيس جمعية علمية محلية ، او على الاصح هى جمعية ذات اغراض علمية ولدى اعضائها حماســة شديدة الا ان وسائلهم كانت محدودة للغاية وآفاقهم ضيقة ..

« المهم اننى لم أستطع الخروج فى احد ايام الآحاد لان المطر كــان ينهمر بشدة ، فبقيت فى حجرتى لا يؤنسنى فى البنسيون الا صــوت الخادم العجوز وهى تقوم بأعمال التنظيف التى تعودت القيام بها فى أيام الاحد . وطرقت باب حجرتى ، ثم دخلت وانصرفت الى تلميع مقبض الباب النحاس بســائل معين كانت تحك به الاكره على ورقة من نوع غليظ اشبه بورق الكتان عليها آثار القدم . وقد ذكرنى شكل الورقة بذلك النوع الذى كان مستخدما فى كتابة المخطوطات القديمة .

ومن غير تفكير وجدتنى اشب من فراشى واتناول منها هذه الورقة واقلبها فى يدى ، ثم صحت بها صيحة افزعتها قائلا :

ـ ويحك ! من اين اتيت بهذه الورقة ؟ ..

فتلعثمت العجوز ثم قالت :

ـ صدقنى يا سيدى انى لم امس اوراقك .. لقد اخذتها من عند سيدى وكيل النيابة فلديه الكثير من هذا النوع الذى يصلح لتلميع مقابض الابواب ..!

ـ هل وجدت هذه الورقة مفردة ؟..

ـ بل قطعتها من كراسة ..

ـ آه !.. ساعطيك عشرة فرنكات ذهبية اذا اتيتنى بهذه الكراسة بالذات !..

« وغابت بضع دقائق ثم عادت الى بالكراسة فوجدتها لا تنقص الا هذه الصفحة التى كانت تصقل بها مقبض الباب وقد اصبحت هذه الكراسة هى نقطة التحول فى حياتى ، لانها لم تكن الا مخطوط « رحلة الاطلنتيد » لدنييس الميلى والتى ضاعت وكان العلماء يأسفون كثيرا لضياعها .. !

« غيران اهمية هذه الوثيقة العلمية تفوق ما كان مظنونا ، لانها تتضمن نصوصا كثيرة من محاورة « كريزياس » لافلاطون التى اريتكما الآن النسخة الوحيدة الكاملة فى العالم كله . وفى هذه النصوص تلخيص طيب لما ورد فى المحاورة من تحديد واضح قاطع لمكان قلعة اطلنتيد الشهيرة مع الاثبات الحاسم بأن ذلك المكان المجهول من العالم لم تغمره مياه الطوفان

« وهكذا عرفت ايها السيدان من مخطوطة دينيس ان الجزء الاوسط من اطلنتيد وهو مقر عائلة « نبتون » المقدسة لم يستطع الطوفان الذى يتحدث عنه افلاطون ان يغمره كما غمر بقية انحاء الجزيرة . كما تأكدت من هذا المخطوط ايضا ان المكان المشار اليه لابد ان يكون جبال الحجار التى يسكنها الطوارق .. كما ان هذا المخطوط يدل على ان سلالة اسرة « نبتون » المجيدة كانت لاتزال على قيد الحياة ، لم تنقرض ولم يذهب ملكها فى عصر دينيس الميلى المذكور

ولما كان المؤرخون يرجحون ان الطوفان الذى اغرق جزيرة اطلنتيد حدث حوالى سنة ٩٠٠٠ قبل الميلاد . وكان دينيس الميلى الف كتابه منذ الفى سنة ، ويذكر انه زار تلك المنطقة ويقرر ان سلالة « نبتون » هى الحاكمة هناك ، فقد خطر لى ان السلالة التى استمرت تسعة آلاف سنة من المحتمل جدا ان تستمر احدى عشرة الف سنة

« وما ان خطرت لى هذه الفكرة حتى استولى على خاطر واحد هو ان أصل الى حصن الاطلنتيد فى جبال الطوارق واتصل شخصيا بسلالة « نبتون » المجيدة الحاكمة هناك . واذا فرض انى وجدتهم نسوا نسبهم الالهى المجيد فسأتولى تذكيرهم بذلك النسب واثباته لهم ..

« وطبيعى اننى تعلمت من درسى السابق الا اكاشف رجال الجامعة او وزارة المعارف بفروضى العلمية الخطيرة لانهم كانوا خليقين فى هذه المرة ان يلقوا بى فى مستشفى للمجاذيب !

« وهكذا اعتمدت على نفسى تماما وجمعت ما استطعت جمعه من المال وركبت السفينة الى ميناء وهران خلسة ، ووصلت الى واحة الشيخ صلاح فى أول أكتوبر وأنا فى شدة السرور حين أتصور افتتاح الدراسة فى مدرستى النائية عن العمران والمدير يبحث عبثا عن مدرس التاريخ ويحاول اسكات الفصول الزائطة ويبرق الى جميع الجهات للبحث عنى وهو يكاد ينشق من الغيظ » .

وانتهزت فرصة توقف مسيو « لوميج » برهة لكى يرى تأثير كلماته فى وجوهنا ، فقلت له :

ـ عفوك ياسيدى ان حديثك ممتع جدا ولكنى اجهل بعض المسائل الاساسية التى تمكننى من فهم كل ماتدلى به من المعلومات ..

ـ مثل ماذا ؟ ..

ـ مثل كلامك عن عائلة « نبتون » الالهية التى تقول ان « انتينيا » تنحدر من صلبها .. ما حكاية هذه الاسرة ؟ وما علاقتها بهذا المكان ؟ .

فنظر مسيو « لوميج » الى زميلى « مورانج » كانه يستغيث به من جهالتى ثم قال :

ـ لم اكن اعتقد ان فى الدنيا شخصا يجهل السطور الاولى المعروفة

للعالم من محاورة « كريزياس » .. ومع ذلك سالخص لك مايقوله افلاطون :

« قرر الآلهة توزيع بقاع الارض عليهم بالقرعة .. فكانت جزيرة الاطلنتيد من نصيب « نبتون » فأسكنها ذريته من زوجة من البشر واقطعهم سهلا خصيبا من أخصب بقاع الدنيا قريبا من البحر . وكان فى وسط الجزيرة على مبعدة من هذا السهل جبل عال يعيش فيه ملك من البشر وزوجته وطفلتهما الوحيدة « كليتو » ، فلما بلغت « كليتو » الحلم مات ابواها وراقت فى نظر « نبتون » نقرر أن يضمها الى زوجاته واقامها فى الجبل الاوسط بعد أن أنشأ حوله اسوارا متداخلة من الجبال يتخللها الماء فيما بينها ، فجاءت هذه القلعة المنيعة دائرة كاملة وسط الجزيرة المترامية تحيط بها حواجز من اليابس تفصل فيما بينها حواجز من الماء »

وما ان وصل مسيو « لوميج » من قراءته الى هذا الحد حتى تبادلت مع « مورانج » النظرات .. فقد ذكرنا وصف هذه الحواجز بالممرات والانفاق التى قطعناها محمولين فى الليلة الماضية على اعناق الرجال .. وصاح « مورانج » يخاطب « لوميج » :

ـ وهذا البحر الذى أحاط بالجبل هو الذى أصبح الان الصحراء .. أتعنى ان البحر الصحراوى هو الطوفان الذى اغرق تلك الجزيرة نتيجة كارثة جغرافية حولت السهل الخصب الى بحر من الرمال بدلا من الماء ؟

ـ هذه هى الحقيقة والدليل على ذلك انك ستأكل على مائدةالعشاء فى هذه الليلة سمكا لذيذ الطعم مما صيد من البركة الصغيرة فى الحديقة

ـ هذه البركة التى تشاهد من النافذة ؟ .

ـ بالضبط .. وستحكم بنفسك هل هذا السمك من النوع النهرى الذى يوجد فى الماء العذب داخل اليابسة أم هو من النوع البحرى المالح مما يدل على ان هذه البركة هى البقية الباقية من ماء البحر الذى انحسر بعد ان ارتفع قاعه فجأة .. ان الكارثة التى حدثت لم تكن كارثة غرق بالماء بل كارثة انحسار للماء وبروز جزء من قاع المحيط الاطلنطى .. وهكذا وجدت جزيرة الاطلنتيد الحالية ..

أما صديقى « مورانج » فابدى اهتماما شديدا بمعرفة معنى اسم « انتينيا » واشتقاقاته .. واذا بالمسيو « لوميج » يدخل فى بحوث فقهية لانهاية لها ينتهى منها الى أن معنى «انتينيا» هو أطلنتا الجديدة. وعزز رأيه بعشرات من الكتب والمخطوطات العجيبـــة التى ادهشت « مورانج » دهشة بالغة وأثبتت له ان جميع المؤلفات العلمية القديمة التى كان المظنون انها فقدت تماما موجودة فى هذه المكتبة العجيبة

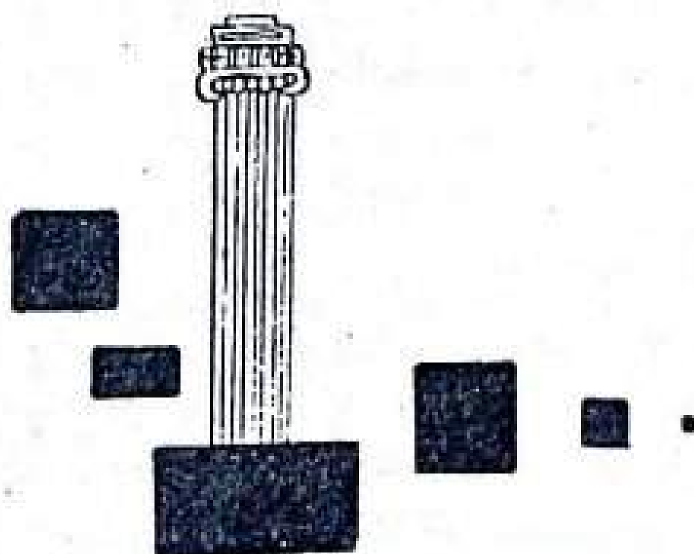
وقد تولى مسيو « لوميج » تفسير ذلك فعرفنا أن مكتبة قرطاجنة القديمة ، وبقايا مكتبة الاسكندرية وأهم مكتبات العالم القـديم قد انتهت الى حوزة ملوك الحجار أجداد « انتينيا » باعتبار ان من بين جداتها كليوباترا الصغرى ابنة كليوباترا الكبرى من « مارك انتونى». وهكذا تعتبر « انتينيا » الحالية هى الوارثة الشرعيـــة لعرش مصر وسليلة « نبتون » العظيم

وعندئذ عيل صبرى ، فقلت لمسيو « لوميج » :

ــ قد تكون هذه المناقشات اللغوية والتاريخية مهمة لديكما .. ولكنى لا أهتم كثيرا بمن هى « انتينيا » وما هو نسبها ، بل اهتم فقط بسر احتجازها لى انا وزميلى

وعندئذ أشرق وجه « لوميج » بابتسامة خبيثة وقال :

ــ مادمت تريد أن تعـرف ذلك ، فتفضـل انت وصاحبـك بان تتبعانى



القاعة الحمراء

وطبيعى اننا اقتفينا بلهفة شديدة اثر مسيو « لوميج » فاخذ يقودنا فى دهاليز وممرات متعرجة تربط بينها سلالم صاعدة وهابطة حتى اننى عجزت عن تحديد وجهتنا فقلت لصاحبى « مورانج » همسا :

ـ انى عاجز عن تحديد الاتجاه .. لقد فقدت كل احساس بالمكان ..

فرد على « مورانج » هامسا :

ـ ان فقدان الاتجاه مسألة تهون جدا الى جانب فقدان العقل .. وهذا الرجل القصير مجنون بلا شك ولكنه فى الوقت نفسه عالم بلاشك ايضا .. ولا استطيع أن اتكهن بما سيطلعنا عليه الان ..

واخيرا وقف « لوميج » امام باب ضخم تعلوه نقوش غريبة ، فتحه بمفتاح معه ودعانا للدخول . ففوجئنا بنسيم رطب ورائحة اشبه برائحة الاقبية . ولم استطع ان ارى فى ظلمة المكان شيئا ، لان المصابيح النحاسية الكبيرة المثبتة فى السقف كان ضوؤها مركزا على مواضع محددة من الارضية التى بدت حمراء كاللهب

وبعد قليل استطاعت عينى ان تتبين فى الظلمة نافورة فى وسط القاعة هى التى ترطب الجو بهذا الشكل . ومن حول النافورة نحتت فى الصخر اماكن للجلوس عليها وسائد من الحرير الاحمر . وقد دعانا « لوميج » للجلوس عليها ، وجلست فى الوسط واحسسنا للرطوبة والجو المنعش والضوء الاحمر تأثيرا عجيبا يجعل الانسان يشعر بالرغبة فى الخلو من كل تفكير والاخلاد الى البقاء فى ذلك المكان الى مالا نهاية

وقال مسيو « لوميج » بصوت هامس :

ـ بعد مضى برهة كافية ستتعود اعينكما النظر فى الظلام ..

ولم يكن من عادة « لوميج » ان يتحدث همسا ولكن جو القاعة كان يغرى حتى « لوميج » بالهمس والخشوع ..

وحاولت ان ارفع عينى الى السقف لاقدر ارتفاعه ، فوجدت المصباح الضخم مدلى فى سلاسل ضخمة من النحاس .. ولكن قبة السقف غارقة فى الظلام فلم أستطع ان أقدر طول هذه السلاسل

ولكنى استطعت ان أدرك بعد قليل ان القاعة مشيدة من المرمر وانها تامة الاستدارة ، وان النافورة التى نجلس حولها هى مركز هذه الدائرة . وشيئا فشيئا استطعنا أن نتبين محيط هذه الدائرة وهو الجدران المرمرية الدائرية . ثم تبين لنا ان الجدران مقسمة الى تجويفات معتمة متشابهة متراصة . وهناك باب آخر يقابل الباب الذى دخلنا منه ويشبهه فى كل شىء . وعدد التجويفات بين البابين ستون فجوة من كل جهة ، أى ان عدد فجوات الحجرة مائة وعشرون عرض كل منها متر واحد وارتفاعه ثلاثة امتار . وفى داخل كل فجوة شىء أشبه بالتابوت نصفه الاسفل فقط مغطى اما نصفه الاعلى فيطل منه تمثال من المعدن الاصفر الحائل على صورة بشرية . وكان عدد هذه التوابيت التى بها تماثيل ثلاثين تابوتا .. وهناك تابوتان خاليان من التماثيل

واستبد بى الفضول كى أعرف كنه هذه التماثيل ، فانتصبت واقفا لاقترب منها .. ولكن مسيو « لوميج » أمسك بيدى واستبقانى قائلا :

ـ انتظر قليلا . ليس الان ..

ووجدت فى لهجته شيئا من الغموض اغرانى بالطاعة فجلست بجواره .. ووجدت نظراته متجهة نحو الباب الذى دخلنا منه الى هذه القاعة ثم تبينت فى الصمت وقع أقدام تقترب منه رويدا رويدا ..

ولم يلبث الباب أن فتح ودخل منه ثلاثة من الخدم الطوارق ، أحدهم هو رئيس الخدم فيما يبدو ، أما الاثنان الاخران فكانا يحملان فيما بينهما شيئا طويلا ملفوفا ..

وبارشاد رئيسهما وضع الخادمان ذلك الشىء الملفوف على الارض ، ثم أحضرا من أحد التجويفات فى القاعة صندوقا طويلا من الصندوقين الفارغين .. وعندئذ قال مسيو « لوميج » :

ـ تستطيعان الان ايها السيدان ان تفحصا كل شيء ..

ثم اشار الى الخدم الثلاثة فتراجعوا قليلا ، واستطرد قائلا لـ « مورانج » :

ـ لقد لاحظت انك تشككت فى الصلة بين هذه البلاد وبين الفراعنة .. فعليك الان أن تفحص هذا التابوت

وركع « مورانج » يفحصه ، ثم لم يستطع ان يكتم صيحة استغراب .. لان ذلك التابوت كان نسخة من توابيت الفراعنة التى تستخدم لحفظ المومياء ، فالخشب المصقول هو بعينه ، والالوان البراقة هى بعينها . وكل ما هناك ان النقوش التى تعلو هذه التوابيت ليست هيروغليفية وانما هى بلغة الطوارق القديمة

وركع مسيو « لوميج » وثبت على الجزء الاسفل من غطاء التابوت رقعة من الورق المقوى جاء بها معه من مكتبه ثم قال لنا ببساطة :

ـ الان يمكنكما ان تقرآ المكتوب هاهنا ..

واضطررت انا ايضا ان اركع لان الضوء الخافت لم يسمح لى بالقراءة وانا واقف .. فلما ركعت وجدت المكتوب بخط الاستاذ « لوميج » الكبير وحروفه المستديرة ما يأتى :

« رقم ٥٣ .. الرائد السير « ارشيبالدراسل » المولود فى ريتشموند والمتوفى فى جبال الحجار »

وما ان قرات هذا البيان القصير حتى نهضت واقفا وصحت مذعورا :

ـ اهذه جثة الرائد « راسل » ؟

فقبض « لوميج » على ذراعى قائلا :

ـ لا ترفع صوتك هكذا .. ما من احد يرفع صوته فى هذا المكان ..

فقلت وانا اخفض صوتى الى الهمس من غير تفكير :

ـ أهو بعينه السير « راسل » الذى غادر الخرطوم فى العام الماضى ليكتشف واحة فى الصحراء ؟

ـ بالضبط ..

ـ ولكن أين هو ؟ . ان الصندوق خال ..

ـ سوف لايبقى خاليا طويلا ..

وأومأ الى الخدم الطوارق فاقتربوا ثم اخذوا يرفعون الاربطة عن الشيء الطويل الملفوف وقد ساد القاعة صمت رهيب واجتاحنا هلع لاحد له ..

وبعد برهة تكشفت الاربطة البيضاء عن تمثال بشرى من ذلك المعدن الاصفر الحائل شبيه بالتماثيل الأخرى التى تحتل التوابيت من حولنا.
وقال مسيو « لوميج » كأنه يقدم التمثال الينا :
ـ السيرارشيبالد « راسل » ..
والجمت المفاجأة لسانى فلم احر جوابا .. ولكن صديقى «مورانج» كان اقوى اعصابا منى ، فانحنى على الجثة وجعل يفحص الوجه ثم قال لـ « لوميج » :
ـ هذه ليست مومياء فرعونية ..
ـ الحقيقة ان عملية التحنيط فى هذا المكان تختلف الان عن التحنيط الفرعونى .. فهم لا يستخدمون هنا تفريغ الجثة وحشـــوها بمواد كيماوية وروائح عطرية بل يغلفون الجثة كما هى بغشاء معدنى خاص
ـ انه البرونز يا سيدى .. أليس كذلك ؟
ـ كلا .. انه المعدن الذى يذكر أفلاطون فى محاورته « كريزياس » انه خاص بسكان الاطلنتيد وانه فى مرتبة وسطى بين الذهب والفضة .. ويسمونه هنا أورشليك . ولعلكما لاحظتما أنه بعينه المعدن الذى يبطن جدران قاعة المكتبة .. انه معدن نادر غير معروف الا فى هـذا المكان ، أشد احتمالا من الذهب وأقدر منه على تحمل عوامل الانحلال
وأومأ مسيو « لوميج » بيده فتناول الخدم الثلاثة جثة السـير « ارشيبالد » فوضعوها فى التابوت ثم أقاموه فى التجويف الخاص به الى جوار التابوت رقم « ٥٢ »
وبعد أن فرغ الطـوارق من مهمتهم ، انحنـــوا لمسيو « لوميج » وغادروا القاعة فى صمت تام . وعند خروجهم دخل من الباب تيار من هواء الممر عبث بمشاعل المصابيح فتراقص لهبها الخافت حولنا فخيل الى ان اشباح أولئك الموتى خرجت تتراقص من حولنا
وظللت برهة انا وصديقى « مورانج » جامدين فى مكاننا من فرط الذهول ، ثم تحاملت على نفسى ونهضت لاطالع البطاقات المثبتة على التوابيت الاخرى بادئا من التابوت رقـم «٥٤» .. وكان لابد لى أن أسند قامتى الى جدار القاعة المغطى بالمرمر الاحمـر كى لا أقع على الارض ..

بلا استثناء

ولم يلبث « مورانج » أن لحق بى ، واخذنا ـ نحن الاثنان ـ نطالع البطاقات المتوالية ، وكانت تحمل أسماء ضباط ورحالة فرنسيين رنمساويين واسبان وانجليز يتفقون جميعا فى شىء واحد هو الضلال فى الصحراء الكبرى وانقطاع أخبارهم الى الابد . ووجدت رقم «٤٨» زميلا من زملاء طفولتى وزملاء الدراسة العسكرية فى سانسير واسمه الملازم « دى مايفو » . وتأملت تمثاله جيدا داخل التابوت ووجدته هو بعينه تحت ذلك الغشاء المعدنى الحائل . واستبد بى الاسى فانفجرت باكيا ، وعندئذ التفت « مورانج » بغضب الى «لوميج» وقال له :

ـ ياله من منظر فظيع ! . لماذا ياسيدى تصر على هذا التعذيب ؟.

فهز « لوميج » كتفيه وقال :

ـ وما ذنبى انا ؟ . انه هو الذى طلب ان يعرف الحقيقة .. أن يعرف لماذا انتما محتجزان هنا ، فأتيت به ليعرف ..

واقبلت انا على « لوميج » أهز كتفيه بعنف وأسأله :

ـ ما الذى جاء ب « دى‌مايفو » الى هنا ؟ . بأى مرض مات ؟

ـ أوه ! مات بالمرض الذى مات به الاخرون جميعا ، وبما سيموت به غيرهم فى المستقبل ! . .

وعيل صبر « مورانج » امام هذا البرود فسأله بحدة :

ـ حسن .. حسن ! . ما الذى قتلهم جميعا ؟ .

ـ قتلهم الحب ! .

ثم ظهرت فى عينيه نظرة تحد وهو يستطرد :

ـ ها انتما الان قد عرفتما ماينتظركما .. والان هيا نجلس بهدوء وابتعدا عن هذه التوابيت ..

وقادنا « لومبج » من يدينا الى حيث النافورة التى تتوسط القاعة والمقاعد الحجرية ذات الوسائد الحريرية الحمـــراء المحدقة بها ، فارتمينا مسلوبى الارادة ،واستسلمنا للصمت وقد بدا خرير النافورة اشبه بالانين الخافت

وكان الاستاذ « لومبج » قد جلس فى الوسط فيما بيننا ـ كعادته ـ وبعد ان ترك لنا فرصة نسترد فيها رباطة جاشنا بعض الشىء قال :

ـ استطيع الان ان اقول انكما قد عرفتما المصير ، ولكن هذا لايعنى طبعا انكما قد فهمتما شيئا ! .

ولما وجدنا صامتين استرسل من تلقاء نفسه فى الشرح :

ـ انتما ايها السيدان قد وقعتما فى اسر الملكة « انتينيا » مثلما وقع فى ذلك الاسر جميع اولئك السادة المحفوظون فى التوابيت ..

فقال « مورانج » بدهشة :

ـ ولكن لماذا ؟ . لماذا تأسرهم « انتينيا » .

ـ اخذا بالثار ..

ـ اخذا بالثار ؟ . اى ثار ؟ . ما الذى اقترفتـــه انا والملازم من جناية ضد الملكة او ضد مملكتها ؟ .

ـ انه ليس ثارا شخصيا فى الواقع ، وانما هو ثار موروث .. ثار قديم منحدر من الاجداد لا اعتقد ايها النقيب « مورانج » انك تدرك مغزاه ..

ـ فى هذه الحالة ارجــو لك ان تكمل لى النقص الذى سببـــه لى جهلى ..

ـ المسالة ابسط من ان تكون موضع دراسة علمية .. انه ثار قديم بين الرجل والمراة ..

ولكن الذى اعلمـــه انه لا توجد ثارات بين الرجال والنســـاء باعتبارهما جنسين ..

ـ ليس بالضبط .. فهناك عامل اخـــر ، ان اوائل المكتشفين من الاوربيين الذين دخلوا بلاد البـــرابرة عبثـــوا بقلوب ملكات البـــرابرة الجميلات عبثا وضيعا .. ومن هنا جاء الثار . لقد كان هؤلاء السادة

يستفيدون من طيبة الملكة الجميلة وكنوزها وسلطانها وما تبذله لهم من نفسها عن طيب خاطر ، ثم يهربون ذات ليلة تحت جنح الظلام ليعودوا بعد قليل بجنود يحتلون المملكة ويقوضون عرش الملكة . هذا ما حدث منذ ايام الرومان ، ولك ان تتذكر على الاقل معاملة جدك قيصر لجدة «أنتينيا» كليوباترا ! . ان هذا التاريخ المتكرر من الاعمال الوحشية كان لابد ان يثير حفيظة الملكة « انتينيا » فقررت ان تكون هى الوحش الذى يفترس كل أوربى ويقتله بسلاح الحب نفسه الذى نل به اجدادكم جداتها ! وهى فى أمان من الانتقام بفضل ما اضفاه جدها « نبتون » على بلادها من الحصانة التى لانظير لها ! .

ـ بالغرابة ! . .

ـ ان « أنتينيا » تعمل على الاتيان بالشبان الاوربيين الاشداء ذوى الوسامة ، وتبذل لهم جسدها الشهى .. فهذا الجسد سهل المنال جداً ـ وبلا تمنع ـ ولكنهم يشعرون فى الوقت نفسه انه لا تأثير لهم على روحها . انها تستخدمهم من غير ان تتأثر بهم او تتعلق . وبذلك يظل الزمام دائما فى يدها ، لانها لاتخضع للحب ولو لحظة واحدة . انها لاتعرفه .. تعرف الجنس فقط . وتستخدمه على هواها بكل فتور عاطفى .. انها المرأة الوحيدة فى العالم التى تفرق تماما بين الحب والاشتهاء .. تمارس الاشتهاء ، بلا حدود ، ولا تخلطه بأى ذرة من الحب !

وتمهل المسيو « لوميج » لحظة ثم استطرد :

ـ وفى هذه المقبرة تضم ضحايا هواها وانتقامها ، كى تزورهم كل يوم لتقضى معهم برهة .. وتقف امام كل منهم وتستعيد ذكريات هواه الجنونى لها ، وكيف كان صدره يستعر بالرغبة فيها ، ثم تلمس ذلك الصدر وتجده باردا برودة المعدن الصلب ، ثم تنظر الى التجويف الفارغ الذى يتلو آخر تابوت ، لتعود الى العشيق الذى سيحتل هذا التجويف عما قريب حسب مشيئتها ، وتتلقفه بين احضانها وهو على احر من الجمر .. !

ولما انتهى المسيو « لوميج » من بيانه المروع استولى علينا الذهول ، فلم نحر انا و « مورانج » جوابا ، ولم يقطع الصمت الرهيب الا خرير النافورة ..

واحسست بالدم يغلى فى عروقى ، فهتفت :

ـ وهل كلهم رضوا لانفسهم هذا المصير ، ورغم ذلك اقبلوا على هواها ؟ ..

ـ كلهم .. بلا استثناء ..

ـ آه .. انها لواهمة ! لسوف ترى اننا من معدن آخر !

وابتسم المسيو « لوميج » ساخرا وقال :

ـ ما اشد سذاجتك ! انك تتكلم ببراءة الاطفال . ولكنك معذور لانك لم تر الملكة « انتينيا » بعد .. ولكنى اذكرك بأن هؤلاء السادة المحنطين من حولك كان فيهم شبان أعلى منك همة واشجع واثبت جنانا .. بل ان احدهم وهو الذى يحمل تابوته رقم « ٣٢ » كان من اشد الانجليز الذين عرفتهم برود أعصاب ، ودخل على «انتينيا» شامخ الانف يدخن سيجارة ، ولكنه ما ان رآها حتى خر ساجدا امام نظرات مولاته الآسرة ! فليس لك اذن ان تهرف بما لاتعرف ، وان تنثر الوعود والتهديدات من غير ان تراها بعينى راسك .. وثق أنك ما أن تراها حتى تنسى كل شيء .. ستنسى الشرف .. ستنسى الوطن .. ستنسى الاهل .. ستنسى كل المبادىء

وعندئذ تدخل « مورانج » بهدوء وسأله :

ـ هل الجميع ياسيدى سواء .. وبلا استثناء ؟

فقال « لوميج » باصرار :

ـ بلا استثناء .. ستجد كل شيء ..

ثم نظر فى ساعته وقال :

ـ لن يطول انتظاركما على كل حال .. !

وفى هذه اللحظة فتح عبد طارقى ـ يرتدى البياض ـ باب القاعة ، وكان اضخم قامة من سائر العبيد ، وتقدم نحونا ولمس ذراعى .

فقال لى المسيو « لوميج » :

ـ لقد حان دورك ياسيدى .. قم واتبع العبد ..

ومن غير أن احير جوابا قمت وتبعته ..

نحو المجهول

لم الق بالى الى شكل الممرات التى اجتزناها ـ انا والعبد الطارقى الفاره ـ لان اضطرابى كان بالغ المدى .. وكانت كل خطوة اخطوها فى تلك الممرات المعتمة المعبقة الانفاس بروائح البخور والعطور الشرقية التى تتصاعد من مجمرات خفية تزيدنى اضطرابا على اضطراب .. فلم أعد أدرى هل تلهفى على لقاء هذه المرأة العجيبة مرده الى التمرد والتحدى ، أم مرده الى الفضول والرغبة النائمة فى اعماقى !

وقف العبد الطارقى فى نهاية المطاف أمام باب أصغر حجما من ابواب سائر الحجرات ، مطلى باللون الابيض . وتراجع العبد وانحنى امامى اشارة لى بالدخول ..

وازداد وجيب قلبى وانا أدفع الباب الصغير وأدخل ، واذا بى اجدنى فى اشد حجرات الاستحمام بذخا وفخامة .. فالسقف كله مصنوع من البلور الفاخر الملون الذى يلقى على الارض اللامعة المصقولة المصنوعة من المرمر الاخضر الشاحب انوارا هادئة يغلب عليها اللون الوردى البهيج . وفى وسط الجدار المواجه لى طالعت عينى ساعة ضخمة قامت فيها الابراج الفلكية بصورها الفنية الباهرة مقام ارقام الساعة المعهودة لدينا .. وعقربها الصغير يدنو من موضع الساعة الثالثة الذى يحتله برج الحمل .. فانا اذن لم اقطع من سحابة هذا النهار مايزيد على نصفه الا شيئا يسيرا جدا .. فما اطوله من نهار !

وارتد طرفى الى جدار آخر ، فاذا به كله عبارة عن مرآه واحدة

ضخمة من ذلك المعدن الاصفر الحائل الثمين الذى تنفرد به جبال الحجار فتبطن به الجدران فى قصر ملكتها ، وتغلف به المومياء فى متحف عشاقها المقتولين ، وتصنع منه افخر المرايا فى افخر قاعات الاستحمام ! ..

وطالعتنى فى صفحة هذه المرآة صورتى كما لم اعهدها .. فادركت على الفور لماذا أرادت لى « انتينيا » ان امر بهذا الحمام اولا قبل ان تستقبلنى ، ولم يسعنى ان اغالب ضحكة استولت على حين قدرت أن هذه الملكة الهلوك يهمها جدا ان يقدمنى اليها المواشط فى اتم جلوة وأبهى منظر !

وناهيك بمنظرى حينئذ كما بدا فى المرآة : لحية كثة غير منتظمة ، وطبقة سميكة لا أستطيع أن اصف لك لونها من الاقذار تغطى وجهى حتى أجفانى ، وتتخللها جداول غير مشرفة حفرتها شلالات العرق .. أما ثيابى فكانت ملتقى لجميع عينات التربة الصحراوية بما فيها من طين ورمال وبقايا عالقة مما ينبت فى الجبال ، فلم يعد من الممكن ادراك لون هذه الثياب الاصلى أو زيها الحقيقى بعد أن انتشرت فيها التمزقات بغير نسق معروف .. فلو اراد أحد صناع ثياب الممثلين أن يبتكر زيا يدل على التسكع والشقاء يرتديه افاق فى مسرحية — من أشد المتشردين والهاربين من السجون ضراوة ومغامرة — لما استطاع أن يبتكر شيئا قريبا من حقيقة هندامى .. !

وانتقلت عينى من هذه الصورة البشعة التى يمثلها شخصى فى المرآة الى ذلك الحوض القريب من موضع قدمى يتصاعد من مائه الصافى عبير عطر ذكى غريب الكنه فيه من عطور الشرق وخدره اللذيذ ما يفعم الانف ويخدر الحواس عن بعد

ومن غير ان افكر لحظة اخرى الفيت نفسى القى عنى بثيابى القذرة المهلهلة ثم انزل الى ذلك الحوض الرخامى البديع واسلم نفسى لدفء ذلك الماء المعطر ..

ولمحت وأنا مستلق على ظهرى فى الماء المضمخ برائحة الورد والياسمين رفوفا تحيط بسياج الحوض وعليها عشرات وعشرات من القوارير التى تعتبر من حيث دقة الصناعة وانواع الحجارة الشفافة التى صيغت منها وكانها جواهر ثمينة ، وفى كل قارورة منها نوع معين من العطور والزيوت والمعاجين ..

وسرعان ما استولت سخونة الماء وسخونة العطر على اعصابى فغفوت وانا مستلق فى الماء ، وقد طرحت من ذهنى كل ما بقى من الوساوس وثورة التمرد التى الهبها فى وجدانى حديث « لوميج » ومتحف المومياء وقصة انحدار « انتينيا » عن « نبتون » اله البحر القديم ..

ولم افق من غفوتى الا وقد وصلت عقارب الساعة الى الرابعة تقريبا .. وكان الذى نبهنى وقوف عبد فاره آخر عارى الصدر والذراعين والوجه ، معتم بعمامة ضخمة من الحرير البرتقالى ، وقد اسند يديه الى حافة حوض الاستحمام وراح يرقبنى كاشفا بضحكته العريضة الصامتة عن صفين من الاسنان القوية البيضاء .. فكأنه جنى المصباح فى قصة علاء الدين

وزاد يقينى من صدق هذا التشبيه حين قلت بصوت مرتفع :

ـ من عسى هذا المخلوق يكون ؟ ..

فازدادت ضحكة العبد اتساعا .. وكأنما اراد ان يؤكد لى انه فعلا جنى المصباح الذى كان يخدم علاء الدين فدفعنى من حوض الماء وكأنه يحمل ريشة ، فبدا لى لون الماء فى الحوض من تحتى اقرب الى لون مياه النيل السعيد فى اوان الفيضان ، من اثر الطمى المبارك الذى خلفه فيه جسدى ! ..

ولم يطل تساؤلى عما سيصنعه بى الجنى الاسود ، لانه سرعان ما اضجعنى برفق فوق منضدة من الرخام فى وضع مائل . وخطر ببالى انه قد يجرى لى جراحة .. ولكن تساؤلى لم يطل لان الجنى الاسود تكشف فى النهاية عن المدلك البارع لصاحبة الجلالة «انتينيا» وحريمها الخاص من العشاق الميامين امثالى !

والحق ان تدليك هذا العبد كان شديدا عنيفا بعد الحمام الذى بث الرخاوة فى اعضائى واعصابى ، فجعلت ازجره واوجه اليه الشتائم وهو لايزيد الا ضحكا وعنفا فى التدليك . وسئمت فى النهاية من كلام لا اتلقى عليه ردا فسكت مستسلما .. واذا به بعد برهة يفتح فمه بعبارة واحدة :

ـ تفضل سيجارة ياسيدى ..

وقبل ان ارد بلا او نعم ، ادخل العبد فى فمى سيجارة معطرة واشعلها لى فتصاعد منها دخان رمادى كذلك الدخان الذى تصاعد

فى الكهف من قبل .. فسرى فى جسدى خدر الحشيش وتركه يدلكنى ويقلبنى على جوانبى كلها ، وانا اتمنى لو كان لى مثل هذا الخادم المهذب الصموت المدرب عندما اعود الى بلاد العمران والحضارة التى الفى منها نظام الرق !

واردت ان اداعبه ، فنفخت شيئا من دخان الحشيش فى خياشيمه .. فاستمرأ هذه الدعابة ورد عليها بتسديد بضع لكمات وقرصات قوية اثناء التدليك

ولما فرغ من مهمته – على حسب ماتراءى له – كان الاعياء قد نال منى كل منال فى سائر اعضائى حتى اننى لم ادر كيف سيتسنى لى النهوض عن هذا المضجع والسير على قدمى .. واذا بالعبد يتناول من فوق مائدة الزينة قارورة صب منها معجونا وردى اللون فى راحته الكبيرة وراح يدهن به اعضاء جسمى عضوا عضوا بلطف شديد .. واذا بالنشاط يدب فيها كلها ، وقد اختفى الاعياء كأنما بسحر ساحر !

ورنت فى الصمت دقات نحاسية ، واذا بى ارى العبد يتوارى من امامى ويبارح قاعة الحمام لتدخل على الاثر جارية سوداء عجوز ترتدى ثيابا صارخة الالوان . ومن العجيب انى لم اشعر بأى استحياء ، ربما نتيجة للحمام وعطوره ، او نتيجة للتدليك والادهنة ، او نتيجة للسيجارة المحشوة بالحشيش . المهم انى لم اشعر بأى استحياء من جسمى العارى بجميع تفاصيله امام هذه الزنجية العجوز التى شرعت تتكلم بسرعة بلغتها غير المفهومة منذ لحظة دخولها . ولعل كلامها كان تعليقا على شكلى المعروض امام ناظريها .. ولكنها كانت – وهى تتكلم بهذه السرعة المضحكة – تقوم بتقليم اظافر يدى ثم رجلى وتلميعها ..

ومرة اخرى دوى الرنين النحاسى فانصرفت الزنجية ليدخل على الاثر عبد اسود يرتدى الثياب البيض شأن العبيد الطوارق – وعلى راسه قلنسوة من القطن المحبوك فى اشكال زخرفية – وما ان تناول ادواته حتى ادركت انه الحلاق الخاص لبلاط الملكة « انتينيا » .. والحقيقة انه كان جديرا بمنصبه الملكى لانه كان عارفا باصول صناعته على مستوى احسن الحلاقين البارزين ، مع دراية باحدث

نماذج قص الشعر ، المتبعة فى اوساط الضباط ..

ثم لاحظت انه بعد ان انتهى من قص شعرى بمهارة ، ازال لحيتى تماما من غير أن يستفسرنى عن الطريقة التى أوثرها وهل هى الابقاء على لحية صغيرة أم كبيرة أم الاستغناء عن اللحية كلية .. ولكنى على كل حال سررت بمنظر وجهى فى المرآة وقد بدا متألقا نظيفا ناضرا .. وقلت فى نفسى :

ـ ان الملكة فيما يبدو تكره اللحى وتفضل الطراز الامريكى من الشبان . وهذا خروج صريح على تقاليد جدها ذى اللحية الكبيرة الاله « نبتون » !

ورن الصوت النحاسى مرة ثالثة ، فانصرف الحلاق وعاد العبد الاسود جنى المصباح الضاحك الذى تولى تدليكى وفى يده صرة ادهشنى عندما حل عقدتها ان اراها تضم زيا كاملا من الملابس الصيفية البيضاء التى يرتديها الضباط الفرنسيون فى انحاء الجزائر

ومن العجيب ان البنطلون كان كانما فصل على جسمى تفصيلا متقنا ، اما السترة فكانت فوق اتقان صنعها واحكامها على قامتى مزدانة بعلامات رتبتى العسكرية ..وكل الاختلاف عن الزى الرسمى هو فى المركوب الاحمر المصنوع من الجلد المراكشى والمزخرف بنقوش ذهبية . أما الملابس الداخلية فكانت كلها مصنوعة من الحرير . وخامرنى اعتقاد بأنها جلبت مباشرة من افخر متاجر باريس

وبعد أن ارتديت ثيابى الجديدة الانيقة وقفت اختال مزهوا أمام المرآة ..

وفى هذه اللحظة دقت الساعة منتصف السادسة ، وعندئذ اختفى العبدالاسود الضاحك ثم سمعت نقرا على الباب ، فلما اذنت بالدخول دخل العبد الطارقى الفاره الذى قادنى فى البداية الى الحمام ، وانحنى امامى ـ كما فعل اول مرة ـ ولمسنى وهو يشير الى براسه ان اتبعه ، ففعلت ..

وقادنى العبد فى عديد آخر من الممرات الطويلة المتعرجة .. ولكنى فى هذه المرة لم اكن مضطربا كما كنت فى المرة الاولى ، اذ كنت قد وجدت فى الحمام المنعش ما هدأ ثورة اعصابى . ثم ان هذا النوع من الحذر المترف الذى داعب حواسى فتح نفسى لنوع اخر من

الفضول والتطلعات . وهذه التطلعات هى التى أخذت ـ وانا امشى ـ تزداد شدة مع كل خطوة

وخطر ببالى سؤال غريب :

ـ ترى لو ان هذا العبد اقترح على فى هذه اللحظة بين المضى الى حيث يقودنى وبين العودة الى الطريق الصحراوى بالقرب من الشيخ صلاح حيث كنت مع صاحبى قبل هبوب العاصفة ، اترانى كنت اختار العودة من حيث اتيت ؟

وأجبت فضولى وتطلعى بشدة وحزم :

ـ لا ! ..

وعند أحد المنعطفـــات المظلمة شعرت بشىء يدفعنى من ظهرى فوقعت على الارض . ولم أر من فعل بى ذلك ، ولكنى سمعت صيحة مكتومة .. ونظرت الى دليلى الطارقى فوجدته قد التصق بجدار الممر فى الوقت المناسب فلم تصبه الصـــدمة ولم يقع على الارض . ولم أجد فائدة من الاستفسار فنهضت وتبعت العبد الى أن انتهت العتمة بما كان يتسرب من النور من خلال ثقوب عديدة فى باب شاهق مصنوع من ذلك المعدن الاصفر الشاهب

وضغط العبد على زر ، فارتفع رنين جرس معدنى ، وانفتح الباب الضخم على مصراعيه واشـــار لى ان اتقدم فدخلت ثم اغلق العبد الباب ورائى وقد ظل فى الخارج ..

وبعد ان خطوت خطوتين بفعل القصور الذاتى ، وقفت ثابتا مكانى وغطيت عينى بيدى لان ضوء النهار الشديد بهرهما فجاة بعد عتمة الدهاليز المتعرجة

وبعد برهة استطعت أن أرفع يدى عن وجهى ، واجيل بصرى فى جوانب القاعة التى خيل الى أنها تقع أسفل القصر المنحوت فى الجبل ، وانها فى مستوى الحديقة التى رأيتها من نافذة الشرفة العليا . وزاد من يقينى بذلك ان النخيل العالى كان يبدو وكأنه امتداد للقـــاعة الشاهقة ، وان طيور الحديقة كانت تمرح بين اعمدتها مثلما تمرح فى الخارج بين اشجار النخيل . وما اشبه الاعمدة فى ارتفاعهـــا وكثرتها باشجار غابة او اجمة من الاجام ..

ووقفت املأ عينى من هذا المنظر ، وقد لاحظت ان سجاجيد القاعة كانت تمتد الى ما تحت اشجار النخيل فى الحديقة بحيث غدت الحديقة

جزءا متمما للقاعة أو العكس . وجعلت اتامل الشمس - وقد جنحت للمغيب - تصبغ حصباء الحديقة وبركتها وجداولها بالوان قرمزية بديعة . وعلى حين غرة دفعنى من ظهرى شيء فوقعت على الارض ، وقعت على وجهى واحسست بأنفاس حارة تلفح عنقى من الخلف . وضربت بيدى فى الهواء وانا اقوم بحركة تخلص مما تعلمته فى المصارعة فسمعت على الفور صيحة غضب .. ثم ترددت فى القاعة اصداء ضحكة مرحة ..

وتولانى العجب ، ووقفت ابحث فى دهشة عما وراء هذا كله من الاعيب التى يراد بها السخرية منى

ولكنى رأيت ما ألجم لسانى وشل جنانى ..

فقد رأيت أمام ناظرى الملكة « انتينيا » ..



الفصل التاسع عشر

أنتينيا

كان ضوء الغروب يتسرب الى الجانب القريب من الحديقة ، اما الاركان البعيدة فكانت تسبح فى الظلام · ولكن أحد هذه الاركان كان أشبه بالتجويف ، وفيه عدد من النوافذ الصغيرة ذات الزجاج الملون .. اما ارضه فمفروشة بالسجاجيد الايرانية البيضاء الفاخرة ، طبقات بعضها فوق بعض ومن فوقها مجموعات من الوسائد والحشايا الملونة والنمارق الفاخرة

وفى هذا الايوان الشرقى الباذخ ، رأيت أربع حوريات ·· ثلاث منهن من أجمل نساء الطوارق البديعات التكوين تميس قدودهن الرهيفة فى غلالات من الحرير الموشى بالذهب . أما الحورية الرابعة فكانت أحلك منهن لونا ، واصغر سنا ، وقد ارتدت غلالةمن الحرير الاحمر زادت سواد بشرتها وضوحا .. ولكنها كانت تحفة بديعة التكوين من تحف الفن الالهى

هؤلاء الحوريات الاربع كن وصيفات الشرف اللواتى يحففن بمنصة عالية من السجاجيد الثمينة من فوقها جلد اسد تضطجع فوقه الملكة « انتينيا » ..

ونست ادرى كيف اصفها .. فما من مرة ملأت منها عينى الا وشعرت انى لم ارها على حقيقتها من قبل ..ثم يعترينى الاضطراب ، فلا أدرى كيف أحدد مواضع الحسن فيها ومنابع الحسن فيها متجددة لاتنفد

وأول ما لفت نظرى لون شعرها الاسود الفزير الذى يكاد سواده — لشدته وغزارته — ان يضرب الى اللون الازرق الكحلى . وكانت



ولست ادرى كيف اصفها .. فما من
مرة ملأت منها عينى الا وشعرت اننى لم
ارها على حقيقتها من قبل ...

تجمع هذه الثروة من الشعر الاسود بمنديل فرعوني منقوش ، لعل جدتها « كليوباترا » كانت تتزين بمثله وهى تستقبل عاشقهاالمدنف « مارك انطونيو » ..

ولا شك ايضا أن جدتها « كليوباترا » كانت تزين جبينها الوضاح بمثل هذه الحية الذهبية من ثعابين الكوبرا التى تطل من راسها بعينان من الزمرد ، وترسل من بين فكيها لسانا متوهجا مزدوجا من الياقوت يلقى ظلا خفيفا فوق هذا الرأس الاشم الفتان

اما قميصها فكان لونه الاسود الموشى بالذهب لا يكاد يضمه الى جسدها الرهيف الا وشاح أبيض عند الخاصرة مزين بنقوش من اللؤلؤ الاسود

اما جسدها الفاتن فكيف أصفه ؟..

انه جسد صبية دعجاء العينين يشع لونهما الاخضر بريقا من نوع غريب لا يدرك له عمق ، وسط وجه صغير القسمات كاجمل ما يتصور الناس وجوه الحوريات وربات الاساطير .. كل ماف هذا الوجه يفيض بالطفولة الا ابتسامتها ، فانها تقطر سخرية وعدم مبالاة . فاذا انتقلت العين الى قدها المليح وجدت مجالى من الفتنة لا تخطر على قلب بشر اقول ذلك وانا لم اجد فى نفسى من القوة ما يمكننى من ان املأ عينى من ذلك الجسم .. لم يخالجنى وانا احس بهذا الجسم تحت نظراتى الغائمة الا الشعور بالتطلع والرغبة المزوجة بالخشوع . ولم يرد على بالى مطلقا ذكر الاثنين والخمسين الراقدين فى توابيتهم بسلام بعد أن نهلوا من ذلك الجسد العبقرى الفريد !

كان قميصها مفتوحا من الجانبين بجراة لا نظير لها .. وكان ثدياها عاريين تماما وكذلك ذراعاها . والمواضع الحميمة من جسدها كانت اكثر اغراء من المواضع العارية بما يتبدى من ظلالها تحت الغلالة الرقيقة . ورغم هذا العرى كله وما ينسب الى هذا الجسد من شناعات الشهوة والتبذل ، الا ان هذا الجسد الفذ بدا لعينى المبهورتين بريئا طاهرا كانه جسد عذراء

ورأيتها تضحك وتتثنى فى براءة لمنظر وقوعى على الارض امامها ، ثم نادت بصوت رخيم آمر مدلل :

– « حيرام » !

ونظرت خلفى فرايت غريمى الذى طرحنى ارضا ، وقد تدلى من احد اعمدة القاعة على صورة فهد بديع التكوين تحمل نظراته آثار الغضب بسبب الضربة التى وجهتها اليه ..

ونادته « انتينيا » مرة اخرى :

ـ « حيرام » !.. تعال !..

وفى وثبة واحدة رائعة صار الفهد تحت قدمى مولاته وراح يلعق بلسانه قدميها .. فقالت له :

ـ قدم اعتذارك لهذا السيد ..

فرمقنى بنظرة غيظ وحقد وكشر عن انيابه وزمجر ، ولكن «انتينيا» وخزته وكررت عليه امرها ، واذا بذلك الوحش المتمرد يحبو على الارض فى مذلة الى ان صار تحت قدمى ووسد راسه الارض ، وسكنت حركته فى انتظار اعرابى عن الصفح ، فمددت يدى ووضعتها على راسه وعندئذ قالت « انتنيا » :

ـ لا تغضب منه .. لابد انه يفتقر الى وسائل التسلية وحده فى هذا المكان ..

وابتسمت « انتينيا » وراحت تتفحصنى بنظرها من قمة راسى الى اخمص قدمى فى هدوء وثبات ، ثم التفتت الى احدى وصيفاتها قائلة :

ـ يا عجيبة !.. اعطى خمسة وعشرين جنيها ذهبيا للصغير ابن الشيخ ..

ثم عادت للنظر الى فى هدوئها وصمتها .. واخيرا بدأتنى الحديث قائلة :

ـ انت ملازم فيما ارى ..؟

ـ اجل ..

ـ ما موطنك ؟..

ـ فرنسا ..

ـ هذا واضح ولكن الذى اسالك عنه هو مسقط راسك .. من اى المقاطعات انت ؟ ومن اى بلد فيها ..

ـ من مقاطعة الجارون .. ومن بلدة دوراس

فشردت ببصرها لحظة ، ثم قالت :

- آه .. دوراس ؟ بها نهير اسمه الدربت
- لقد ذهبت الى هناك اذن ؟..

فانطلقت ضحكة مجلجلة ، وقالت :

- ياله من تصور ؟.. هل ذهب بك خيالك الى ان ترى حفيدة « نبتون » تركب قطارا للسكة الحديدية وفى خط من الخطوط الفرعية ايضا ؟..

- عفوك ..

واحمر وجهى لغبائى الذى بدا لى من لهجتها واضحا جدا .. وعندئذ اشارت بيدها الى سور الجبال المحيطة بالحديقة وقالت لى :

- اننى لم اتجاوز قط هذا المدى فى رحلاتى ..

ثم تناولت كتابا من بين الكتب المتناثرة حولها فوق جلد الاسد وقالت :

- هذا دليل السكك الحديدية فى بلادك .. وانا اتسلى بتصفحه لاعوض نفسى عن قلة حركتى ..

- ولكن فرنسيتك بديعة ..

- اليس كذلك ؟.. هذا شىء لابد منه . وكذلك ستجدنى اتقن فى نفس المستوى الالمانية والايطالية والانجليزية والاسبانية . ولكنى افضل اللغة الفرنسية فعلا ، وانا لا اقول لك هذا على سبيل المجاملة

وتذكرت على الفور كلمة « بلوتارك » العظيم عن جدتها «كليوباترا »:

- قلما كانت تحتاج هذه الملكة الى مترجم للتفاهم مع وفود الامم الاخرى ، فهى تتقن لغات الاحباش والعرب والسريان والميديين والبرتيين والعبرانيين

ويبدو ان شرود ذهنى ساءها لانها قالت لى :

- مالك تقف هكذا بعيدا وسط القاعة كانك احد أعمدتها ؟.. تعال اجلس الى جوارى على سجيتك .. قم من هنا يا « حيرام » ودع السيد يجلس ..

وانصرف الفهد على مضض ، وجلست متهيبا فى اول الامر ولكنها قالت لى :

- اعطنى يدك ..

وفوجئت بها تتناول خاتما من ذلك المعدن الاصفر الشاحب خاليا

من النقوش ، وتضعه فى الاصبع البنصر من يدى اليسرى حيث تلبس خواتم الزواج . ونظرت الى باسمة وهى تمد الى يسراها لارى فى بنصرها خاتما مثله تماما .. ثم قالت للحورية الرابعة ذات الغلالة الحمراء والبشرة السوداء :

ـ هيا يا « تانيت » قدمى للسيد كاسا من شراب الورد ..

فأسرعت الحورية تلبى الامر ، وقدمتها لى « انتينيا » قائلة :

ـ انها سكرتيرتى الخاصة الآنسة « تانيت » التى تنحدر من اسرة عريقة كأسرتى تحكم منذ اجيال عديدة موطنا من اشرف المواطن على النهر النيجر ..

وكانت ـ وهى تكلمنى وتساقينى ـ تقرب وجهها من وجهى وتسلط على نظرات عينيها الواسعتين الخضراوين ، فأشعر بدوار خفيف مثل دوار الحشيش . وفجاة سألتنى بصوت هامس :

ـ وزميلك النقيب ؟ .. انى لم أره بعد .. فما شكله ؟ هل هو مثلك ؟..

وردنى سؤالها الى الواقع الذى كنت قد نسيته تماما . فاننى ـ وانا بقربها ـ لم افكر فى عزيزى « مورانج » .. ولذلك لم يسعفنى لسانى بالجواب فسكت . وابتسمت « انتينيا » والقت بنفسها بين الحشايا فوق جلد الاسد فانحسر القميص المفتوح من الجانبين عن ساقها اليمنى وفخذها ، ثم قالت فى ضجر وهى تتمطع :

لقد ازف الوقت كى اراه .. اما أنت فستاتيك اوامرى فى الوقت المناسب . قومى يا « تانيت » معه لتوصليه الى حجرته المخصصة له فهو لم يعرفها بعد ..

ولم اجد بدا من النهوض ، ثم تناولت يمناها لاقبلها مودعا .. فاذا بها تضغط بها فمى كأنما تريد ان تؤكد سيطرتها على ..

والفيت نفسى امشى فى الممرات المظلمة المتعرجة ، والحورية السوداء ذات الغلالة الحمراء تقودنى فى ذلك الجو المعطر بالبخور .. ووقفت فجاة امام باب ، وقالت لى :

ـ هاهنا حجرتك .. ولكن وقت العشاء قد حان ، فان شئت ذهبت بك الى حجرة المائدة لتتناوله مع الآخرين ..

وكانت الحورية السوداء تتكلم الفرنسية بطلاقة ، فقلت لها :

ـ لا من فضلك ، افضل ان آوى الى حجرتى فى الوقت الحاضر لانى اشعر بجوع بل بتعب شديد

ـ انى لا اراك تتذكر اسمى .. ان اسمى « تانيت » ومعناه فى لغتى الينبوع او العين الصافية

ـ ياله من اسم جميل سأتذكره دائما .. ولكنى اريد الآن ان استريح ..

وكانت الحورية السوداء تتلكأ فى حجرة نومى بصورة واضحة ، وانا ضيق النفس بها .. ولولا وقوعى تحت تاثير « انتينيا » لكان شعورى بهذه الحورية الفاتنة عكس ذلك تماما ..

وقالت « تانيت » :

ـ انا اقيم فى الحجرة التى تعلو حجرتك تماما .. وعلى هذا النضد ستجد ناقوسا صغيرا من النحاس ، اذا احتجت الى اى شىء يكفى ان ترنه رنة واحدة فيدخل عليك عبد طارق مكلف بخدمتك خاصة ..

وسرنى هذا ايما سرور ، فكأننى فى فندق فاخر من فنادق الرتيز فى جوف الجبل .. وما ان ارن الجرس حتى يدخل وصيفى الخاص

وشرعت اجيل طرفى فى انحاء حجرتى بهذا الفندق العجيب ، فوجدتها تختلف كل الاختلاف عن غرف أى فندق من الفنادق ، لانها عبارة عن قاعة مترامية الارجاء مفروشة بالسجاجيد الفاخرة ، وبها حشايا ووسائد واريكة وثيرة وفراش ، وكلها من الرخام .. وثمة نافذة كبيرة عليها ستار من النباتات المجدولة

وازحت الستار عن النافذة ، فتسربت اشعة الاصيل الاخيرة الى الحجرة .. ورقدت فوق فراشى الرخامى وآلاف الافكار تتصارع داخل راسى . ثم نهضت ونظرت من النافذة الى اسفل فاذا بها ترتفع عن سطح الارض من تحتها مقدار ستين مترا تقريبا ، وبدا الجدار الجبلى ناعما اسود مصقولا .. ويقابله من الجهة الاخرى على مسافة لا تقل عن كيلو مترين جدار آخر هو اول حاجز من الحواجز التى ذكرتها محاورة « كريزياس » ومن وراء ذلك الحاجز رايت بعين الخيال الصحراء التى لا نهاية لها

الفصل العشرون

الكاس والطاس

لم ادرك مدى ما كنت اشعر به من التعب الا بعد ما اكتشفت انى غرقت فى النوم بصورة مستمرة الى ما بعد ظهر اليوم التالى ، فلم استيقظ الا فى نحو الساعة الثالثة ..

ولكنى استيقظت فى حالة صفاء ذهنى شديد ، مكنتنى من استرجاع كل ما حدث فى الليلة الماضية .. فازداد احساسى بغرابة ذلك كله وقلت فى نفسى اننى احوج ما اكون الى استطلاع رأى صديقى الرزين وشريكى فى هذه المخاطرة النقيب « مورانج » ..

وما هممت بالنهوض من الفراش حتى احسست بشىء انا احوج اليه بصفة عاجلة ـ قبل حاجتى الى استطلاع رأى هــــذا او ذاك ـ اكتشفت اننى اشعر بجوع ضار ..

وتذكرت الجرس الذى دلتنى « تانيت » الحسناء على طريقــة استعماله فمددت يدى اليه ، ولم تكد رنته تتلاشى حتى ظهر عبد طارقى فى فرجة الباب فقلت له :

ـ اذهب بى الى المكتبة ..

واطاع فى صمت .. وتبعته ، وكانت بضع خطوات كافية كى اوقن انه لا سبيل وسط هذه الدهاليز المتعرجة الصاعدة الهابطة الى تعرف طريقى بمفردى فى هذا التيه ..

وما أن دخلت المكتبة ، حتى وجدت « مورانج » منصرفا بكليتــه الى قراءة احد المخطوطات .. فما ان رآنى حتى هتف :

ـ بحث ثمين كان المعتقد انه مفقود تماما .. انظر الى هذا الخط المكتوب بريشة اوزة ..


وما ان دخلت المكتبة ، حتى وجدت
«الموراني » منصرفا بكليته الى قراءة احد
المخطوطات.. فما أن رآني حتى هتف:
ـ بحث ثمين كان المعتقد انه مفقود تماما

ولم اجد ما اجيب به على هذا الاهتمام الذى بدا لى فى غير موضعه .. فقد استأثر باهتمامى شىء اخر رأيته بجوار المخطوط على المائدة ، وهو خاتم من ذلك المعدن الاصفر الشاحب مثل الخاتم الذى وضعته « انتينيا » فى بنصر يسراى فى الليلة السابقة ، ومثل الخاتم الذى رأيته فى أصبعها • وتركزت نظراتى على ذلك الخاتم ، ولاحظ « مورانج » ذلك فابتسم ابتسامة يسيرة فقلت له :

ـ هل قابلتها ؟ ••

وبهدوء اجابنى :

ـ قابلتها ••

ـ انها رائعة الحسن •• أليس كذلك ؟

ـ ليس من السهل أن يمارى المرء فى هذه الحقيقة .. بل أعتقد انها تمتاز بشىء لا يقل اهمية عن الجمال ، فذكاؤها فى مستوى جمالها النادر ••

وتملكتنى الحيرة ، فلم ادر ماذا اقول •• ولم ألبث بعد برهة ان سألته :

ـ هل تدرى ماذا سيكون من أمرنا معها ؟ ••

ـ ادرى ذلك في حدود ما بينه لنا المسيو « لوميج » بالامس •ويبدو لى على كل حال اننا مقدمان على مغامرة حقيقية ••

وصمت « مورانج » برهة ثم استطرد :

ـ انى اشعر بتأنيب ضمير شديد لانى كنت السبب فى استدراجك الى هذا الفخ •• ولا يخفف بعض الشىء من ألمى سوى انك تتقبل المسألة بهدوء تام منذ امس ، بدليل انك نمت هذا النوم العميق المتصل ••

ـ ولكن ما خطتك انت ؟ ••

وبهدوء أغلق المخطوط الذى كان يطالعه واسترخى فى جلسته ، واشعل سيجارة معطرة ، ثم بدأ يتكلم بأناة :

ـ ان موقفى ليس سهلا •• بل انه يختلف كثيرا عن موقفك لان لى صفة دينية كما تعلم • وحتى بصرف النظر عن عهد الرهبنة والتبتل ، فان عقيدتى الدينية الراسخة تنص على عدم جواز اتصالى جنسيا بأى امرأة لم يعقد قرانى عليها •• ثم اننى فضلا عن ذلك اصارحك بأنى لا

آنس فى نفسى اى رغبة او استعداد لممارسة ذلك النوع من العلاقة الذى توسم فينا الصغير ابن الشيخ القدرة عليه والرغبة فيه !.. ثم ان حرية التصرف فى حياتى ليست مكفولة لى . ولو فكرنا قليـــــلا فى انواع التسامح والرخص التى تبذلها الكنيسة لابنائها عند الضرورة لقلنا انه قد يجوز لى افتداء لحياتى ورغبة فى العودة بهذا المحصول العلمى الى معاهدنا ان احاول ارضاء رغبات « انتينيا » على قدر استطاعتى .. ولكن هذا غير مجد فى حالتنا لان الرضوخ لرغباتها لن تكون نتيجته الافراج عنى بل سيكون مصيرى احد توابيت القاعة الحمراء .. اما قبلك او بعدك على حسب ما توحى اليها شهوتها .. !

– اذن ؟ ..

– اذن لست اجد لنفسى اى مبرر يشفع لى فى الرضوخ لارادة هذه المراة ..

– ولكن ماذا ستصنع ؟ ..

وبابتسامة هادئة اجابنى « مورانج » :

– اقصى ما يستطيع المرء ان يصنعه فى هذه الحالة الا يصنع شيئا ، وان يصر على عدم صنع شيء ..

– لست افهم ..

– المسالة واضحة .. فالرجل بحكم تكوينه الجسدى يستطيع ان يرفض الاذعان لارادة اى امرأة مهما كانت رغبتها وسلطتها عليه . اما المرأة فبالعكس ، لا بد لها من الخضوع للارتمام فى هذا الشأن ، فليس لرجل ان يزعم انه اكره على الفحشاء بغير رضاه الضمنى ..

وادركت ما فى هذا الكلام من غمز شديد لى ، فاطرقت واستطرد « مورانج » :

– ولا اكتمك اننى حاولت اقناعها بكل الاساليب المنطقية ان تعفينى من هذا الذى تريد ولكن بلا جدوى . واخيرا قلت لها لماذا اعفت المسيو « لوميج » والقس ، فقالت لانهما لا يصلحان شكلا ولا موضوعا ، ثم اثنت على منظرى ثناء اخجلنى ، وتمثلت بابيات لـ « بودلير » تنـــدد بالخلط بين الشرف والهوى . ثم اعترفت لى بانها تستفيد من « لوميج » فى اعمال المكتبة وتنظيم المخطوطات ، ولا سيما انه يجيد الاســبانية والايطالية . وتستفيد من القس الانجليزى لمعــــرفته بالانجليزية

والالمانية ، وتستفيد من الكونت لمعرفته باللغات السلافية .. وكأنما سابقها منى ان أطالبها بتفسير لتصرفاتها فصرفتنى .. وهذا كل ما هناك

وعندئذ دخل علينا المسيو « لوميج » صائحا :

ـ ماذا تفعلان هنا ايها السيدان ؟ .. الجميع فى انتظاركما لتناول العشاء ..

وكان المسيو « لوميج » صافى المزاج فى هذه الليلة ، فأخذ يسألنا عن مقابلتنا لـ « أنتينيا » فلم نجبه بشىء . ولما وصلنا الى قاعة المائدة ، كان القس والكونت قد شرعا فى تناول طعامهما بالفعل ، فقال المسيو « لوميج » :

ـ انك لم تكن معنا يا مسيو «دى سانت افيت» بالامس ، على مائدة العشاء .. فهذه أول مرة تذوق فيها طهو طباخنا « كوكو » .. وأحب ان اعرف رأيك فيه ..

ووضع خادم المائدة الاسود امامى سمكة كبيرة حمراء تسبح فى صلصة متبلة بكثير من الافاوية . ولشدة جوعى انكببت على الطعام بنهم .. والحق ان مذاقه كان حسنا ولكن الاباذير الحريفة اصابتنى بظمأ شديد . فجعلت اعب من النبيذ الازرق الكوب تلو الكوب .. وسرعان ما بدا لى كل شىء من حولى فى لون وردى بهيج . وسمعت المسيو « لوميج » يقول بصوته الثاقب :

ـ ما رأيك الان يا مسيو « هورانج » ؟ ..

وكان « مورانج » يأكل سمكته على مهل وفى تلذذ ..

ـ فيم ؟ ..

ـ فى هذا السمك ؟ .. لقد صيد عصر اليوم من البحيرة التى فى الحديقة فهل هذا سمك بحرى ام نهرى ؟ الست ترانى على حق فيما ذهبت اليه من أن الصحراء التى كانت من قبل بحرا ملحا هى جزء من المحيط الاطلنطى ؟

وبهدوء أجاب « مورانج » :

ـ هذا دليل ملموس بلا شك على صواب رأيك ..

وسكتنا فجأة لان الباب فتح فى هذه اللحظة ودخل منه عبد فاره ابيض الثياب ملثم ، تقدم على مهل من زميلى « مورانج » ولمسه من

ذراعه وانحنى بأدب ، فقال « مورانج » بهدوء :

ـ سمعا وطاعة ! ..

ونهض على الفور وتبع العبد .. وافرغت انا كوبا كبيرا من النبيذ في حلقى دفعة واحدة . وأدرك الكونت ما اعانيه فنظر الى بفهم .. اما المسيو « لوميج » فغمز بعينه وقال :

ـ ان ملكتنا ـ كجميع الملكات ـ تحترم ترتيب المناصب والالقاب ، وبما انه نقيب وانت ملازم .. !

وبصعوبة قاومت رغبة طاغية في ان اقذف العالم العلامة بزجاجة النبيذ الفارغة . ثم صرفت همى فى شرب زجاجة اخرى .. واشتبك المسيو « لوميج » والقس فى جدل عجيب حول الخلاف بين العلم والدين . ثم تدخل الكونت فى المناقشة تدخلا اعتبره الفيلسوف والقس تطفلا لانه لا يدرى شيئا فى الدين ولا الفلسفة ، ولكنه يصر على تغليب رأيه بحكم مقامه ولقبه النبيل .. وساعده على الاحتفاظ بهيبته انه لم يسكر كما سكر صاحباه مع انه شرب خمسة اضعافهما ذلك ان قدرته على مقاومة السكر عشرة اضعاف مقاومتهما ، بحكم ما تشرب به دمه بالوراثة عن اسلافه السكارى المدمنين .. واخيرا قال لى :

ـ فلنترك هذين الثملين ولنذهب الى قاعة الميسر

وقاعة الميسر هذه قاعة قليلة العرض كثيرة الطول . ومائدة القمار فيها منخفضة يجلس الناس حولها فوق حشايا ووسائد .. أو على الاصح يضطجعون حولها . وكان الجالسون نحو عشرة من الطوارق عبيدا وجوارى . وفى ركن من اركان المائدة باطية كبيرة من الخمر المقطرة من التمر . واكواب من الفخار . وعرفت من بين العبيد ذلك الذى قام بتدليكى ، وتلك التى صقلت اظافرى ، وذاك الذى قص شعرى وحلق لحيتى ، وثلاثة من العبيد الطوارق ذوى الثياب البيضاء خلعوا اللثام وانصرفوا للتدخين فى غلايين طويلة يتصاعد منها دخان الحشيش

وكان هناك ايضا وصيفتان من وصيفات « انتينيا » الحسناوات هما « عجيبة » و « سيدة » وكانتا ترتديان غلالتين مزركشتين بنقوش فضية تبدو من تحتهما بضاضة جسديهما الرشيقين الخمريين . وخاب املى

لانى لم اجد معهما الحورية السوداء « تانيت » ·· ورأيت لأول مرة الطاهى الزنجى « كوكو » الذى قدمه لى الكونت بحفاوة شديدة · وكان « كوكو » هو الذى يقوم بعملية البنك · وقام « كوكو » بتقـديم الفيشات الملونة الى الكونت الذى اخذ يعدها ويوزعها فى ارستقراطية شديدة

وبعد دور او دورين من اللعب اشتد سكر الجميع ·· فانجاب الخجل والحياء ، وتحرر الذكور والاناث فى حركاتهم ·· وقرأت فى عينى « سيدة » شوقا مكتوما وهى تنظر الى خلسة ولكن بشىء كثير من الخوف ، باعتبارى « محجوزا للملكة » !

ودام اللعب على هذه الوتيرة سـاعات والجميـع لا يكفون عن الصخب والسكر والمناوشات الغزلة المكشوفة ، باللسان احيانا وباليد احيانا اخرى · وانتهت الجولات بأن كسب « كوكو » ثـلاثة ارباع الفيشات وبذلك انتهت الجلسة ، فانصرف الجميع وبقيت وحدى مع الكونت · وسألته وانا اتناول من يده كأسا اخرى من الخمر :

ـ ترى كم الساعة الان ؟ ··

ـ بعد منتصف الليل بنصف ساعة ·· لا تتركنى بهذه السرعـة للوحدة والاحزان ··

وفجأة طفق الكونت العجوز يبكى وهو فى حالة سكر اثار شجنه القديم ، ثم قال لى :

ـ الا ترى « عجيبة » فتاة حسناء ؟ ·· انها تثير شجنى لانهاتذكرنى بكونتس حسناء تشبهها كثيرا الا انها اشد بياضا منها بالطبع · وكانت تلك الكونتس تستحم عارية تماما على شاطىء بيارتيز حينمـا كان « بسمارك » واقفا فوق القنطرة ·· ولكن الزمن حكم على بعد معاشرة كبار السادة ان الاعب هؤلاء العبيد

وهممت ان اتركه لانام ، فتشبث بى قائلا :

ـ لا تتركنى وسأحكى لك كيف اتيت الى هنا ·· وهى قصة لم أحكها لأحد من قبل ··

الفصل الحادى والعشرون

قصة الكونت

وأخذ الكونت يحدثني قائلا :

« عما قريب . سأبلغ الثامنة والستين من عمرى .. وقد قضيت معظم حياتى بين قصور الملوك ، فكيف لا ارثى لشيخوختى وانا اقضيها فى هذا الجحر القصى من العالم لا أجد رفيقا لى على مائدة القمار الا العبيد والجوارى ؟

« وقد ولدت ياصديقى فى وارسو من اب بولندى وام روسية . وقد اضطر والدى الى النزوح عن بولندا لاسباب سياسية ، واقام فى لندن يعيش عيشة البذخ والاسراف بعد ان توفيت والدتى وورث عنها ثروتها الطائلة ليغرق فى هذا القصف والمجون حزنه الشديد عليها فيما زعم !

« ولما حم أجله لم يخلف لى من بقايا هذه الثروة الا ايرادا ضئيلا مقداره الف جنيه استرلينى سنويا .. وكان قد علمنى لحسن حظى بضعة حيل فى العاب الميسر ورحت امارسها ، وانا يومئذ وريث شاب دون العشرين أعيش عيشة المجون والحرية فى بيكاديللى

« وكانت حياة المقامرة هذه سببا فى وقوع الحادث الذى غير مجرى حياتى من النقيض الى النقيض . وخلاصة المسألة ان صديقى اللورد « ميلز بيورى » كان يلح على منذ مدة أن يذهب بى الى صالون احدى السيدات الجميلات المعروفات فى الوسط الاجتماعى لقضاء السهرة . وذات يوم أذعنت لارادته ، وذهب بى الى هناك .. فاذا الانسة « هوارد » ربة البيت سيدة جميلة حقا ، وجميع زوارها من الطبقة العليا بين انجليز وأجانب . واشتركنا جميعا فى اللعب ، ثم فى

الاحاديث السياسية .. وكانت اخبار فرنسا تحتل مركز الاهتمام.
وكنت قد ثملت ، فقاطعت المناقشات قائلا :
ان الجمهورية فى فرنسا اليوم تعنى الامبراطورية غدا . وضحك
الجميع لهذا الكلام ، ونظروا الى احد الضيوف ـ وكان رجلا قصير
القامة دقيق الملامح ـ فنهض واقترب منى وسألنى عن اسمى ..
فاجبته فى زهو ابن العشرين :
ـ انا الكونت « كازيمير بيلوفسكى » ..
« فابتسم محدثى وقال :
ـ انا الامير لويس نابليون بونابارت . وارجو ان تصدق نظريتك
وفى هذه الحالة أرجو ان تزورنى فى قصر التويلرى . .
« وهكذا كنت فالا حسنا للرجل الذى اصبح الامبراطور نابليون
الثالث .. وغداة تتويجه استدعانى الى باريس ، وعيننى فى حاشيته،
وزوجنى من ابنة أحد دوقاته وكبار قواده . وكانت تكبرنى بعشر
سنوات ، حادة الطبع ، لم ترزق حظا باهرا من الجمال .. ولكن ثروتها
كانت كبيرة . وتعزيت عن أوجه النقص فى زوجتى بغادة باريسية
صغيرة اسمها « كليمنتين » كنت مجنونا بها ، وكان الجميع يحسدوننى
عليها لجمالها وخفتها .. حتى ان الامبراطور نفسه فيما يقال كان يتصل
بها سرا ، ولكنى كرجل مهذب كنت أتجاهل ذلك
« وذات يوم وجدت بين بريدى خطابا من الامبراطور يدعونى لمقابلته
فى الساعة الرابعة ، وبطاقة من « كليمنتين » تخبرنى أنها تنتظرنى فى
منزلها فى الساعة الخامسة . ومع هذه البطاقة مجموعة كبيرة من فواتير
الخياطين وتجار المجوهرات ، الذين تعاملهم هذه الحورية الفاتنة ،
ومجموع المطلوبات تزيد على خمسين الف فرنك ذهبا . وتنهدت
وانا ادس هذه الفواتير فى جيبى حتى لا تقع فى يد زوجتى . وقررت
أن اضع حدا لهذا الخراب بقدر الامكان
« واستقبلنى الامبراطور فى الساعة الرابعة فى حجرة نومه لاصابته
بزكام .. واخذ الامبراطور يسألنى عن آخر مغامراتى ، وعن اخبار
« كليمنتين » فاخرجت له الفواتير ، وعلق على ذلك مبتسما بقوله :
ـ سأتولى عنك هذه الحسبة لانى أريد ان تؤدى لى خدمة ..
« ثم أمر الملك باستدعاء سكرتيره الخاص المسيو « موكار » كى

يشرح لى مهمتى . ولخص لى المسالة على النحو التالى :

ـ عاد احد المستكشفين من صحراء الجزائر بكشوف خطيرة للغاية ستكرمه عليها الجمعية الجغرافية . ولكن الذى يهمنا سياسيا فى الموضوع انه تمكن من اقناع رؤساء قبائل الطوارق العصاة بالحضور الى باريس واعلان ولائهم لجلالة الامبراطور . وهى مسالة تعنينا جدا من الناحية السياسية ، ولذا نهتم كثيرا بارضاء هؤلاء السلاطين الطوارق ، واكتساب ودهم باى شكل . وسيصل وفدهم المكون من خمسة اشخاص غدا الى محطة ليون ، وعلى رأسهم الشيخ عثمان وهو كبيرهم المطاع . وقد راى جلالة الامبراطور ان تكون مندوبا عن البلاط فى استقبالهم ورئاسة بعثة الشرف فى الحفلات الرسمية وفى السهرات اللطيفة التى تستولى على حواس امثالهم . وانت بهذه الحياة الليلية خبير .. وانت مطلق التصرف فى هذا البرنامج الليلى

« وعندئذ تدخل الامبراطور فى الحديث قائلا :

ـ وسنرصد فى المصاريف السرية لهذه النزهات الليلية مائة الف فرنك تسلم لك اليوم دفعة أولى .. واذا احتجت لشىء لك ان تطلب ماتشاء من « موكار » .

« وهكذا انحلت عقدة الفواتير ، وغنمت مبلغا اخر غير محدد . وذهبت منشرح الخاطر الى موعدى مع « كليمنتين » فى البيت الصغير الذى اشتريته لها فوجدتها فى انتظارى تحت اغطية الفراش وهى تبكى . وبالاختصار عرفت منها انهاتنتظر مولودا تؤكد لى انه سيشبهنى تمام الشبه . ولما رات جزعى اعتبرت ذلك اهانة فاقسمت لها اننى سعيد جدا فقالت :

ـ ان كان هذا صحيحا اقض الغد معى ..

ـ هذا مستحيل لانى ساكون المرافق الرسمى لوفد الطوارق فى مغانى باريس النهارية والليلية ـ

« واعتبرت ذلك اكبر كذبة سمعتها فى حياتها واخذت تتهمنى بالخيانة والتهرب .. ومن شدة غيظى صحت بها :

ـ المسالة بسيطة .. انى ادعوك لتناول العشاء مع هؤلاء الضيوف البرابرة .. وسترينهم بعينى راسك

« وتلقفت الدعوة من فمى .. ولكنى لم انزعج لذلك لان « كليمنتين »

يكون من عوامل اقناع هؤلاء السود بمزايا المدنية الباريسية

« وتم الاستقبال فى الصباح بالروعة الرسمية المناسبة ، وتجمع الشعب لمشاهدة هؤلاء الشيوخ المهيبى الطلعة فى ثيابهم الشرقيـــة الزرقاء . وكانوا يردون على تحية الجماهير بخليط من اللغات الايطاليه والفرنسية والبربرية ، اشاع المرح وزاد من شعبية الضيوف . وفى المساء كانت حفلة العشاء فى أحد مقـــاصف باريس الراقية بهيجة للغاية . وسرعان ماسكر الطوارق الخمسة ، وسكرت « كليمنتين » والفانيات الاربع الاخريات من محظيات أصدقائى واللواتى دعوتهن لاتمام المجموعة فى المستـــوى الذى يناسب « كليمنتين » وارتفعت الضحكات الناعمة ، وتمايلت الاعطاف . وبدأت حركات الغمز بالاقدام تحت الموائد فحدثت أخطاء مضحكة عندما اراد صـــديقى الكونت « جرامونت » أن يغمز عشيقته فى فخذها فقرص ركبة أحد المشايخ الطوارق ، وثار غضب الرجل لولا براعة « كليمنتين » فى استرضائه

« وفى نهاية السهرة أسر لى الشيخ عثمان بحديث خطير نيابة عن اخيه الشيخ احمد . ووعدته ان أحمل اليه النتيجة فى الغد . وقبـل ظهر اليوم التالى ذهبت الى « كليمنتين » وايقظتها من نومها ــ بعـد عناء شديد ــ وسألتها عن رأيها فى الشيخ احمد الذى لم يكف عن معانقتها ليلة أمس لانه يعرض عليها قلبه وعرش سلطنته . فاستهواها ان تكون امبراطورة مثل « اوجينى ». ووقفت تحدق فى المرآة وتتصور نفسها وعلى راسها تاج . ثم تذكرت فجأة أصول المجاملات ، فطوقت عنقى وقالت لى :

ــ وماذا تفعل انت من غيرى يا مسكين ؟ هل اتركك فريسة سهلة لزوجتك البشعة ؟

ــ فكرى فى مصلحتك يا « كليمنتين »

ــ اوه ! .. وطفلنا ياعزيزى « كازيمير » ؟

ــ انا متأكد من أن براعتك فى الاقناع لن تعجز عن حمل الشيخ احمد على الايمان بأن الطفل الجديد يشبهه

« وفى الغد قبل الظهر كان اكسبريس مارسيليا يحمل وفد الطوارق ومعهم عروس الشيخ أحمد الباريسية « كليمنتين » التى كاد يطير بها فرحا ، بعد ان عقد له عليها احد الائمة فى الليلة السابقة وقضى معهـا

الفصل الثانى والعشرون

الحمّى

وبعد تلك الليلة التى قص على فيها الكونت حكاية اشجانه والخطوات التى قادته الى جبال الحجار ، وانا أعيش فى حمى متواصلة انتظارا للقاء « انتينيا » ولك ان تعجب ماشئت من أننى لم أفكر فى الموت الذى ينتظرنى فى نهاية قصة غرامها ، بل كان تفكيرى كله فى الاجتماع بها . ورغم تلهفى الشديد على ذلك الاجتماع ، مرت الايام والليالى من غير أن يأتينى عبدها الفاره ليلمس ذراعى ويدعونى اليها

وبمضى الساعات ازدادت ثورة غضبى الشديد .. فمعنى هذا الانتظار ان « مورانج » ينال الحظوة ولا يفرغ اربها منه .. وكم راجعت نفسى قائلا :

ــ ماذا اصابك يا «دى سانت آفيت» ؟ كيف أصبحت لا تضيق بالاسر ولا تسعى للفرار ، ولا تتمرد على القيد بل تقبل اغلالك وتتلهف على توثيق عبوديتك وتتمنى ان تسرع اليك لحظة هلاكك ؟..

وحاولت ان اتسقط أخبار صديقى « مورانج » من العبيد الطوارق والوصيفات الحسان ، فلم أستطع ان اظفر بطائل ، وكل ما استطعت أن أظفر به من أخباره انه سليم معافى .. وانه يستمتع بشهية جيدة للطعام ، فالعبيد والجوارى دربوا على التكتم الشديد فلا يبوحون بأسرار مخدع مولاتهن ، ولكن أسرار المائدة تتسرب منهم بسهولة .. فـ « عجيبة » و « سيدة » لا تكتمان عنى ولع صاحبى بتلك الفاكهة اللذيذة التى تجود فى جبال الحجار وحديقة قصرها وهى الرمان .. وانهما لتضحكان كثيرا لنفور صاحبى من احدى الوجبات المشهورة فى جبال الحجار بما تزيده فى قوة الرجال . واذا اردت أن أعرف

شيئا بعد حديث ذلك الطعام المرفوض تضاحكنا وولنا هاربتين لنختفيا في الممرات المتعرجة .. فلم يبق لي أمل الا في ينبوعي الجميل « تانيت » .. وكانت « تانيت » تنتهز كل فرصة تزورني في حجرة نومي كما تشرف على راحتي . ولكنها خيبت أملي كلما حولت الحديث عن شخصها الى الحديث عن « انتينيا » وأخبارها ، فترتسم على وجهها سحابة من الكآبة وترفض ان تحدثني بشيء حتى ولو عن الاصناف التي تقدم على المائدة لها ولصاحبي « مورانج »

ولما كنت لا أميل الى مخالطة العبيد من الطوارق من جهة ، ولا آنس فيهم من الجهة الاخرى رغبة في الكلام .. فلم يبق أمامي الا مقلمة الاظافر الثرثارة العجوز ذات الثياب الصارخة الالوان . وكنت قد لاحظت عليها أثناء المقامرة انها مغرمة بالشراب ، فكنت استغل تلك الرغبة وادعوها كل يوم الى حجرتي لتقلم لي اظافري !

وقد عرفت منها أن « انتينيا » هي ابنة السلطان احمد من زوجته الفرنسية ، وقد ورثت عنه السلطنة ، ورفضت أن تخضع لارادة رجل عن طريق الزواج ..

وهكذا اكملت لي هذه الزنجية المعلومات التي فاه بها الكونت وهو سكران . ولعل هذا هو السر في ابقاء « انتينيا » على الكونت السكير الماجن .. انه نداء الدم الخفي كما يقولون ..

ــ ان مولاتي « انتينيا » تحب الرجال البيض ، ولكنها لا تريد ان تذهب اليهم ... وتفضل ان تستقدم مجموعات منهم الى هنا ليكونوا تحت تصرفها على النحو الذي يحدده سلطانها المطلق . والصغير ابن الشيخ هو الذي يقوم بتوريد هؤلاء الرجال ، وهي غالبا تثق بذوقه ..

ــ وما سر اخلاصه لها ؟ ..

ــ انه ينتمي بالولاء الى قبيلتها .. وبعد أن قتل القائد « فلاترز » رفضت جميع قبائل الصحراء أن تجيره وأوشك أن يقع في يد الفرنسيين ، ولكن « انتينيا » اجارته وكانت يومئذ عذراء في العشرين من عمرها ، فأراد أن يظهر اعترافه بجميلها فاحضر لها هدية عبارة عن ثلاثة من الضباط الفرنسيين الشبان هم الذين يحتلون الان التوابيت رقم ١ و ٢ و ٣ . وهو يجد في ذلك لذة كبيرة ان يشفى غليله من اعدائه الفرنسيين الذين اهدروا دمه

ـ وهل الصفير ابن الشيخ يؤدى دائما هذه المهمة العجيبة بمنتهى التوفيق ؟ ..

ـ ما من احد يعرف الصحراء ومسالكها كما لو كانت بيته الخاص ، مثلما يعرفها الصفير ابن الشيخ . ولكن فكرته فى البداية عن الرجال المطلوبين كانت متأثرة بتقاليد الصحراء حيث يعتبر الرجل فى اى سن صالحا لاى امرأة .. وهكذا جاء ذات مرة بالعالم « لوميج » وبذلك القسيس الانجليزى ..

ـ وماذا فعلت بهما « انتينيا » ؟ .

ـ ظلت تضحك عندما رأتهما وانتهى الامر بابقائها على حياتهما . ومنذ ذلك اليوم فهم الصفير ابن الشيخ المطلوب منه جيدا .. فهم ان « انتينيا » تهتم كثيرا بجمال شكل رجالها وتهتم بشبابهم ..

ـ وهل كانوا كلهم من أهل الوسامة ؟ ..

ـ لاينبيك مثل خبير .. أو خبيرة . وانا اعرفهم جميعا ، فقد دخلت عليهم كلهم الحمام وهم عراة كما ولدتهم امهاتهم . وثق ان لى نظرة فاحصة لاتفلت شيئا من مزايا كل منهم . وانا اقلم اظفار اليدين ثم اظفار القدمين على مهل . ولكن ان كنت تريد الحق لم يكن فى المجموعة السابقة كلها من يبارى فى جمال الشكل ووفرة الجسم صديقك الذى اتى معك هذه المرة ودخل الحمام بعدك ..

وضايقنى هذا الحديث ، فاردت ان اغير الموضوع وسالتها :

ـ مادامت قد منحت الحياة للقس وللمسيو « لوميج » فلماذا لم تمنحهما حريتهما ايضا ؟ ..

ـ لانها وجدت لهما اختصاصات .. فلابد لها من رجال يخدمون عقلها وادارة مملكتها مثلما تحتاج الى رجال يخدمون شهواتها .. ثم ان القاعدة هنا ان من يدخل لايخرج وهو حى ! .

ـ لماذا ؟.

ـ لان من يخرج من هنا ـ وهو حى ـ سيعود مرة أخرى ومعه جنود بالمدافع والبنادق . وبذلك تنتهى دولة « انتينيا » ويحكم علينا جميعا بالاعدام بعد العثور على توابيت قاعة المرمر ..

ـ الم يحاول احد الهرب ؟ ..

ـ كل الذين احضرهم الصفير ابن الشيخ لم يفكروا فى الهرب بعد

ان وقعت انظارهم على « انتينيا » باستثناء واحد فقط ..
وأردت أن اعرف كم سابقى فى الانتظار فسالتها :
ـ وما هى المدة التى تحتفظ فيها « انتينيا » عادة بكل رجل ؟ ..
ـ « انتينيا » لا تحب الخلط بين الوان الطعام ولا بين الرجال .. ولذلك تتأنى الى أن تستنفذ اغراضها من كل رجل على حدة .. ولذلك تختلف مدة احتفاظها بالواحد منهم على حسب استطابتها لمعاشرته . وهذه مسالة لا يمكن التكهن بها من شكل الشخص او طوله وعرضه .. فقد كان احدهم بلجيكيا عملاقا ، ولكنها لم تحتفظ به الا اسبوعا واحدا .. فى حين ان الضابط الانجليزى القصير الهزيل « كين » لبث فى حظوتها سنة كامة ..
ـ وفى نهاية السنة ؟ ..
وعجبت الزنجية العجوز لسؤالى وقالت :
ـ مات طبعا ..
ـ كيف ؟ .
ـ حبا .. فالجميع هنا يموتون حبا .. فعندما يشعر الواحد منهم ان الصغير ابن الشيخ قد امر بالرحيل لاحضار سواه يستولى عليه الحزن ويكف عن الطعام والنوم . وبعضهم كان يبكى .. والبعض الاخر يغنى . وواحد فقط اصابه الجنون فصار يعض كل من يقع تحت يده . فلم يكن بد من قتله ، كما يقتل الكلب المسعور . وكثيرون منهم ماتوا بادمان الحشيش .. وهؤلاء يموتون وهم يحلمون اسعد الاحلام . والمسكين « كين » مات منتحرا بعد سنة كاملة من النعيم ، عندما مثل ذات يوم بين يديها فرنت الجرس وامرت العبد العملاق باخراجه ، فذهب الى حجرته والقى بنفسه من النافذة فسقط من ارتفاع مائتى قدم . ورغم صعوبة عملية التحنيط بعد ذلك ، تم تحنيطه بنجاح .. وهو يحتل الان التابوت رقم «٢٦» وفى وسعك أن تراه بنفسك فى اى وقت
ـ ولكن هل تحتجز « انتينيا » من يقع عليه اختيارها طول الوقت فلا يراه بقية من فى القصر ؟ ..
ـ انها تفضل دائما أن يكون رجلها بقربها وتحت طلبها فى اى وقت
وضقت ذرعا بهذه المراة واخبارها المشئومة ، فصرفتها وانا ضيق الصدر .. ولكن ما قصته على اغرانى بزيارة تابوت اهم غريم لى

وهو الشاب النحيل « كين » .. فطلبت من القس ان يدلنى على قاعة المرمر الاحمر ، فدخلتها وحيدا وجلست فى ظل النافورة الى ان هدات انفاسى .. ثم قمت التمس التابوت رقم «٢٦» وقد كتب عليه انه للملازم « دوجلاس كين » الاسكتلندى المولود فى ادنبرة والذى مات وهو دون الثامنة والعشرين من عمره ، فاذا وجـه نحيل للغاية وفم دقيق ينم عن الحزن . ولاشك انه خلف وراءه فى بلده الجميـل حبيبته او خطيبته من بنات جنسه .. ولكن لا وجه للمقارنة بينهـا وبين « انتينيا » الجبارة

وانتقل تفكيرى الى الرقم «٥٤» الذى سيحتله « مورانج » بلاشك، ثم الرقم (٥٥) الذى سأحتله أنا ، لا ادرى بعد كم من الاسـابيع أو فى شهور قليلة غاية مأربه من الدنيا ! ..

وخالجنى شعور عجيب بالغضب والغيرة .. اكلت قلبى الغـيرة من صديقى « مورانج » ولكنى لم اشعر بالغيرة من هؤلاء الموتى .. ولا ممن سيحتلون التوابيت من بعدى ، لانى اعلم ان « مورانج » فى هذه اللحظة ينعم بأحضان « انتينيا » الى أن يأتينى فجاة العبد الاسود ويلمس ساعدى ويأخذنى الى مخدعها .. فأعلم أن زميلى صار وديعة بين ايدى المحنطين

وانتزعت نفسى انتزاعا لأمضى الى قاعة المكتبة ، حيث وجـدت الاوربيين الثلاثة ومعهم « عجيبة » واثنـان من العبيـد يتناقشون باهتمام . ولما استفسرتهم عرفت ان الاخبار أتت الى هنـا بطريقة غامضة عن اثنين من الرحالة الاسبان شوهدا قرب جبال الحجار من ناحية الغرب

واقتراب مكتشفين أوربيين من الحجار مسالة مثيرة دائما ..ولكن الادعى للاثارة أن الصغير ابن الشيخ بمجرد علمه بهذه الاخبار ــ نشط كما هى العادة للرحيل الى هناك كى يتلقف هذين الصيدين الجديدين ويأتى بهما الى مولاته ..

وما ان ركب الصغير ابن الشيخ جمله حتى لحق به عبد من خـدم « انتينيا » الخصوصيين وابلغه لاول مرة فى تاريخ الحجار الا يمضى فى مهمته المعتادة ، وان يترك الرحالتين الاسبانيين يفلتان من الفخ ! ..

هذه هى المعجزة التى لا يصدقها احد .. فالمعنى الواضح لهذا الامر أن الملكة « انتينيا » عرفت الحب الحقيقى لاول مرة فى حياتها

الفصل الثالث والعشرون

الـــزائـــرة

أفقت من نومى على صوت غريب بجوار اذنى ، وفتحت عينى بتثاقل وتهيأت للتمطى ، الا انى اجفلت فجأة ـ وقد دب فى النشاط ـ اذ رأيت على مسافة نصف متر من وجهى رأس السيد « حيرام » بفرائه الاصفر الذى تعترضه خطوط سوداء · اما الصوت الذى سمعته ، فهو صوت تثاؤب هذا السيد ، وقد فغر فاه الكبير فظهرت انيابه وحلقه لامعة البياض والحمرة بصورة غير متوقعة !

وكان طبيعيا امام هذا المنظر ان اثب الى الوراء ، وعندئذ رنت فى مخدعى ضحكة عالية ناعمة ·· واذا بالصغيرة الحسناء « تانيت » جالسة فوق وسادة على الارض بجوار مرقدى ، وهى تنظر بفضول وسرور الى حركاتى وقد ايقظنى الفهد اللعين بتثاؤبه ··

وكأنما وجدت أنها مطالبة بشىء من الايضاح فقالت :

ـ « حيرام » يشعر بالسأم ، فخطر ببالى ان احضره الى هنا ليجد شيئا من التسلية ··

فقلت فى غيظ :

ـ كان من الممكن ان تلتمسى له مكانا آخر لتسليته ··

ـ وماذا اصنع وسيدته تصر على ابعاده لان العابه تضايقها الان ·· ولكنى مستعدة للانصراف اذا كان ذلك يغضبك ··

ونظرت بعطف الى الفهد المطرود من حظوة سيدته وقلت لها :

ـ لا مانع من بقائه ··

والحقيقة ان حظنا المشترك من الابعاد قد قرب بينى وبين هـــذا الحيوان المسكين ، فأخذت اواسيه بالتربيت على رأسه فأبدى « حيرام»

امتنانه البالغ واخذ يتمطى مستسلما لمداعباتى ..

ولما رأت « تانيت » سرورى وترحيبى لـ « حيرام » قالت :

ـ وقد احضرت « جالية » معى ايضا ..

ـ ماذا تعنين ؟ ..

ـفاشارت الى قط رمادى اللون كبير الاذنين مستقر فى حجرها ، كان يتأملنى بعينين صغيرتين حمراوين .. ولم ارحب كثيرا بهـــذا التعارف الجديد ، فضحكت « تانيت » وقالت :

ـ ارجوك الا تهين صديقتى « جالية » .. أنها صديقة طفولتى منذ انقذت حياتها وسأحدثك بذلك فى مناسبة اخرى .. لابد ان ترحب بهـــا ..

ورفعت القطة الغريبة الشكل ووضعتها فى حجرى ، فلم اجد بدا من التربيت على ظهرها ثم قلت فى سأم :

ـ انى لسعيد بزيارتك هذه يا عزيزتى « تانيت » .. ولكن كـم الساعة ؟ ..

ـ بعد التاسعة .. لقد ارتفعت الشمس فى كبد السماء كثيرا .. وسترى ذلك بنفسك حين تطل من النافذة .. ولكن افضل ان اسدل الستار ليحجب الضوء الشديد وحرارة الشمس ..

ـ ان الجو هنا ليس حارا على هذا الارتفاع .. بالعكس انا افضل الشمس ..

وضحكت « تانيت » لتغيظنى ، ثم قامت فاسدلت الستار ضـــاربة برغبتى عرض الحائط .. وفى العتمة بدت عيون « الحيوانين » اشد توقدا .. فعينا « جالية » كجمرتين ، اما عينا « حيرام » فمثل زمردتين خضراوين ..

وأردت ان استدرجها فى الكلام فقلت :

ـ يبدو أنك اليوم خالية من كل عمل .. فانى لم أرك من قبل فى مثل هذه الساعة من النهار ..

وحركت هذه الكلمات أشجان الفتاة ، فتجهمت قليلا وقالت بشىء من الحدة :

ـ الامر كما تقول .. ليس لدى اليوم عمل ..

والعجيب أن الغضب والحزن أبرزا جمال « تانيت » ولفت نظرى أنها

أرسلت شعرها حرا على منكبيها .. وباتت تفاصيل جسمها تحت غلالتها الرقيقة واضحة منسقة ليس فيها أدنى أثر للشحم أو الفضول .. أما صدرها الناهد فكان كبرتقالتين ثابتتين .. ولم تضق عندما رأت عيني تجول بين محاسنها على هذه الصورة .. وقلت لها باسما :

- من أى البلاد أنت يا « تانيت » الصغيرة ؟ .. أحقا أنت من بلاد النيجر ؟..

- هذا صحيح .. ومسقط راسي جاو على نهر النيجر .. وهى عاصمة السلطنة العريقة التى جلس أجدادى على عرشها قرونا طويلة .. فليس حالى الراهن هو حقيقة أمرى ، وما كنت لترانى هنا لو أن الامور سارت على نهجها القديم ..

وكانت « جاليه » قد تركتنا لتنظف نفسها على عادة القطط فى ركن تسربت اليه أشعة الشمس من فرجة فى الستار .. أما « حيرام » فاستلقى على الارض فوق البساط ، واستسلم للنوم . ولكنه كان يصعد زفرات الضيق بين الحين والحين ، وكأنه يحلم بحسرات البعاد التى أذاقته اياها مولاته القاسية ..

وبالفعل أكدت لى الحورية السمراء « تانيت » ذلك ، حين وضعت سبابتها على فمها ، وقالت همسا :

- تكلم بصوت منخفض لانه يحلم ..

وسكت لحظة ، وأنا أفكر فى أحلام « حيرام » الحزينة كأحلامى ، ثم سمعتها تقول :

- لا أظنك تريد أن تتناول طعامك مع الاخرين كالمعتاد .. فلماذا لا آتى الى هنا بطعام نأكله معا وحدنا . وسأحضر شيئا أيضا يأكله « حيرام » و « جاليه » .. فالمجموعة الكبيرة من الناس تضايق الانسان الحزين .. ولكن الحزين لا يستطيع أيضا أن يأكل بمفرده !

ومن غير أن تنتظر ردى ، انفلتت الحورية السمراء الى المطبخ لتأتى بالاطعمة . وتناولنا أول طعام لنا على حده .. ثم اصبحت هذه عادتنا كل صباح ، فتعودت من غير اتفاق سابق أن أستيقظ على ضحكتها الناعمة وفى صحبتها الفهد والقطة . وصرت أستريح كثيرا لصحبتها حتى أصبحت لا أتصور غيابها عنى ..

ولكنها ظلت تتحاشى الحديث عن « انتينيا » .. وتجيد ببراعة تحويل

مجرى الكلام كلما أردت توجيهه هذه الوجهة • وكانت لها قدرة على الكلام بلا توقف فى موضوعات تافهة ، ولكنهامتواصلة، حتى لاتترك لى فرصة لالقاء الاسئلة !••

والم بى مرض بعد فترة ، فلازمت فراشى هى والحيوانات ليل نهار تمرضنى بكل حنو وعناية • وفى أوقات النقاهة أخذت تسلينى برواية حكايات وأساطير عن بلادها الاصلية •• ولكن أحب هذه القصص اليها كانت قصة حياتها شخصيا ••

ـ كنت ألعب مع رفيقات طفولتى الصغيرات على شاطىء النهر فى ظلال الشجر ، ونجدل من الازهار والاعشاب أنواعاً من الاكاليل والسلال نلقى بها الى النهر ، ونترقب أفراس البحر وهى تفتح فاها الضخم لتاكلها •• وعندئذ نقذفها بدقاق الحصى كى تجبرها على الغوص فى جوف النهر •• ولكننا كنا نتحرز فى ساعات الظهر والعصر من التماسيح الخبيثة التى تكمن بين الاعشاب الطويلة • واذا رأينا أحدها عن بعد قذفناه بالحجارة •• وفى ذات يوم ابتعدت عن رفيقاتى وأنا اطارد فراشه جميلة •• واختطفنى تجار الرقيق • وهكذا أتيت الى هنا حيث باعونى لـ « أنتينيا » التى فرحت بى كثيراً ، وأولتنى حبها وعطفها •• فأنا اذن لست جارية من الاماء ـ كما تظن ـ ولكنى سليلة ملوك عظام ، منهم من حج الى مكة فى حاشية من ألفى فارس •• فقد كانت سلطنتنا تمتد من بحيرة شاد الى البحر الغربى !



الفصل الرابع والعشرون

حيرام

وذات يوم من الايام التى صارت « تانيت » تقضيها فى صحبتى لتؤنس وحدتى وتفرج ـ كربى ـ بعد أن استرددت تمام عافيتى ـ تلبدت السماء فجأة بالغيوم والساعة لم تجاوز الخامسة بعد الظهر ، ثم لم يلبث الجو أن أظلم واشتدت الحرارة فوجدنا صعوبة فى التنفس، وأدركنا أن عاصفة تنذر بالهبوب قريبا ..

وكان « حيرام » منطرحا على الارض فى سأم كعادته ، وغير بعيد منه رقدت « جاليه » مستسلمة لاشجانها الحيوانية .. أما أنا و « تانيت » فوقفنا متكئين على سياج النافذة نتأمل قمم الجبال الثلجية ، والسحب المشحونة بالبرق والرعد تمر من ورائها . ولكن هذه السحب أطلقت بعض البروق بين الحين والحين ، وأبت أن تطلق من رعودها شيئا .. وأدركنا أن العاصفة أبت ان تنفجر فوق رءوسنا، ومضت فى طريقها تبحث عن أفق اخر .. ولم تترك لنا الا الحرارة والانفاس المخنوقة والعرق والضجر .

وتمطت « تانيت » فى قميصها الشفاف وزينتها التى لم تيأس من العناية بها كل يوم ، رغم اعراضى عن هذه المائدة الشهية المبذولة ، وقالت بتراخ :

ـ سأصعد لأنام ..

وحجرتها ـ كما قالت انفا ـ تقع فوق حجرتى مباشرة ، ونافذتها ترتفع فوق نافذتى بنحو عشرة أمتار . وكثيرا ما لعبت معى لعبة عجيبة على سبيل التسلية الصبيانية بأن تدلى فى خيط من نافذتها عنقود عنب لآكل من حباته وأنا واقف بنافذتى ثم تجذبه فجأة !

وتركتها تمضى وأنا فى حالة نفسية سيئة من تأثير العاصفة التى لم

.. واتجهت « تانيت » الى « جالية » فحملتها على كتفها . ودعت « حيرام » كي يتبعها فأبى . وحاولت أن تجره من طوقه فتشبث بمخالبه في البسط وقاوم بكل قوته محتجا عليها بزمجرة عنيفة ..

وضايقني ذلك ، فقلت لها :

ـ اذهبي أنت ولا بأس أن يقضي الليلة هنا ..

وأطاعتني « تانيت » وانصرفت . ولو لم تطعني لتغير وجه حياتي.. واخلدت أنا لأفكاري ـ وقد ساد الظلام والصمت ـ الى أن نبهني صوت زمجرة الفهد ، فرفعت اليه بصري لاراه واقفا عند الباب يخمشه بأظافره كي افتحه له لانه ـ فيما يظهر ـ يريد أن يخرج بحثا عن « تانيت » .. ثم خطر لي بعد قليل أن استمراره فى المحاولة بعد ان رفض الخروج مع « تانيت » يدل على شيء آخر ، فهو لا يريد الذهاب الى « تانيت » بل يريد التخلص من رقابتها ، كي يذهب الى مولاته الاصلية التى هجرته وابعدته ..

وتربعت فى فراشي ، ورحت افكر فى هذا الموضوع .. ان حياتي أصبحت تسير على منوال لا يطاق ، وكل هذا التلهي بأحاديث « تانيت » وقصصها الساذجة لا يمكن ان يكون كافيا لمراوغة احلامي ، التى لا تفارقني فى يقظة او منام .. فليست لى فى الواقع الا رغبة واحدة ، فلماذا لا تكون الاقدار قد الهمت هذا الفهد هذه الحيلة كي نصل نحن الاثنان الى رغبتنا المشتركة .. ولماذا لا انتهز هذه الفرصة الفذة ؟..

وكان ذلك كافيا كي اصدر قراري بسرعة .. ولكنني تحيرت كيف اتمكن من تتبع « حيرام » بالسرعة الكافية وهو يقفز فى الممرات المظلمة كي يقودني الى مخدع « أتينا » ؟ واخذ عقلي يعمل بسرعة وكان الحبل الوحيد الذى فى متناول يدي هو الحبل الذى يحرك ستار النافذة ، فقطعته ولففت جزءا منه حول يدي مزدوجا ، ثم ربطت طرفه الاخر باحكام فى طوق « حيرام » ..

فعلت ذلك وأنا اربت على « حيرام » والاطفه ، ثم فتحت الباب ببطء ، وأنا اتوسل اليه ان يمشي على مهل .. ولكن الفهد اندفع ، ووجدت عناء كبيرا فى حمله على تخفيف سرعته وأنا أجرى خلفه بكل قوتي ..

وكانت المصابيح القليلة المتناثرة فى الممرات الملتوية المتعرجة الصاعدة

الهابطة قد اوشكت ان تخبو، وقد بلغت الساعة التاسعة مساء . وتأكد لى مرة اخرى انه لولا ارتباطى بـ « جيرام » لما امكننى ان اعثر على الحجرة المطلوبة باى شكل ..

وكأنما فهم « جيرام » اننا حليفان ، فأخذ يزحف على الارض نحو غايته ببطء وهو يرسل زفيرا مكتوما يدل على الفرح . ولما طال الطريق خامرتنى الوساوس خشية ان يقودنى الى مكان آخر مثل قاعة الميسر .. او مثل بيت الخلاء الذى يقضى فيه حاجته ، فربما تكون هذه الرغبة الشديدة متجهة الى الحاح الاغراض الهضمية على تكوينه الحيوانى ! ..

ولكن وساوسى زالت فجأة عند احد المنحنيات ، وقد تبددت العتمة وبدأت امامى تلك الثقوب الزخرفية فى الباب البرنزى الجميل ينبعث منها ضوء أحمر واخضر ، وتوقف « جيرام » امام الباب ، واخذ يطلق عواء مكتوما فتحقق عندى ان هذا هو الباب الذى دخلت منه مرة واحدة مع العبد الطارقى حيث تلقيت ضربة من « جيرام » نفسه أوقعتنى على الارض امام « أتينيا » .. هذا هو الباب اذن ! ... وانحنيت فوق « جيرام » ورحت ادلله كى يهدأ من ثورته فلا يفضح عملنا قبل الاوان . ثم حركت مقبض الباب بعد ان قصرت مقود « جيرام » ولففته طيات اخرى حول يدى كى ازيد من تحكمى فيه ، وكان اقترابه من غايته قد زاد من هياج أعصابه . والواقع اننى لم اكن احسن منه حالا لان قلبى صار يدق كالطبل ..!

وكانت القاعة مظلمة تقريبا لولا ضوء القمر الذى يملأ الحديقة ، ولكن الهواء كان ساكنا وسعف النخيل لا يتحرك ، والبحيرة ساكنة كأنها صفحة مرآة ..!

وجلست على احدى الحشايا ، واطبقت ركبتى على « جيرام » الذى اخذ يزوم ويحاول الافلات . وحاولت ان ارتب ذهنى لا للتفكير فيما اريد فأنا اعرف ذلك جيدا ، ولكن فى تخير الاسلوب المناسب للوصول الى هذه الغاية .. ولابد لى قبل ذلك من قدر مناسب من هدوء الاعصاب حتى لا افقد زمام الموقف ..

وفى هذه اللحظة طرق مسامعى صوت تهامس صادر من عدة اشخاص فى مكان قصى ، ولكنه مجاور للقاعة .. وسمع « جيرام »

ما سمعته على ما يظهر ، فزادت زمجرته وضاعف جهوده للافلات فلم اجد بدا من اطالة المقود ، وتبعته وهو يتحرى المشى بجوار الجدران ، انه يلتمس مصدر ذلك الصوت .. وجعلت اقتص اثــــره واصطدم بالحشايا والوسائدفأقع عليها من غير أن أصاب بسوء أو يند منى صوت يفضحنى ..

ولما الفت عيناى الظلام ، تبينت الركن الذى تتكدس فيه الابسطة البيضاء مكونة عرش « انتينيا » الذى رأيتها مضطجعة فوقه على جلد الاسد فى تلك المرة الفريدة ..

وتوقف « حيرام » عن جذبى فجأة ، وأنا منـــدفع الى الامام .. فسقطت عليه ولكن ذلك لم يضايقه فيما يظهر ، فلم يزمجر بل اخذ يحك راسه بجزء من الجدار تبينت بعد قليل انه باب .. فطوقت عنق « حيرام » بذراعى كى امنعه من الاندفاع ، وبيدى الاخـرى فتحت الباب ببطء وجعلت أهمس فى اذن « حيرام » ان يهدأ ولا يفسد كل شىء فراح يلعق يدى بلسانه .. واحسست بجسده كله ــ وهو فى حضنى يرتجف وكان رغبة بالغة النشوة تستبد به .. !

وبدت أمام ناظرينا قاعة اخرى كبيرة ، لم يكن يضيئها الا مصباح واحد فى الوسط .. أما بقية الاركان فتسبح فى الظلام . وفى ضـوء ذلك المصباح جلس على شكل دائرة ستة من العبيد الطوارق السود فى ثيابهم البيضاء ــ فوق بساط ــ يلعبون لعبة المقامرة الرومانية بزهر النرد ، ويشربون القهوة فى فناجين من النحاس ، مستطيلة الشكل .. وامامهم اكوام من النقود يلعبون بها . فكان منظرهم اشبه بلوحة فنية فى ذلك الضوء المحدد ، ومن حولهم ظلام ، وقد ارتسم على وجوههم الجد .. لوحة من النوع الذى تفنن فى رسمه اقطاب المدرسة الهولندية ... وكانوا لا يتكلمون الا لاعلان مضارباتهم وباصوات خافتة جافة ..

وتربصت فى ركن مظلم ، وبأقصى ما استطيع من الثبات ، فككت مقود « حيرام » الذى كان يتلهف على الانطلاق وقلت له :

ــ على بركة الله يا بنى !..

وكأنما كان حيرام ينتظر هذه اللحظة ، فوثب فى الهواء وثبة هائلة وهو يطلق زمجرة مدوية ، فاذا به يسقط وسط حلقة المتقامرين .. وساد الذعر . وقبل ان يفيقوا لانفسهم كان « حيرام » قد قفز مرة

أخرى مختفيا فى الظلام ، وانا اتتبعه بقلبى اكثر مما اتتبعه بعينى . وعرفت من اتجاه القفزة موضع الممر المظلم الذى يمتد فى الجانب الاخر فى مواجهة الممر الذى اختبىء فيه . وادركت ان باب مخدعها الخاص لابد ان يكون هناك .. واكد لى هذا الظن ان الحراس السود حرصوا على الا يرتفع لهم صوت نتيجة لمهاجمة « حيرام » لهم ‥ ولا يمكن ان يحدث ذلك الا اذا كانوا على مقربة من مولاتهم النائمة .. مع ان قفزة «حيرام» أصابت اثنين منهم على الاقل بضربتى مخلب لانى رايتهما يدلكان كتفيهما وعلى وجهيهما امارات الالم .. واخذ الباقون يجمعون الاقداح المتناثرة وزهر النرد والنقود ..

وغنى عن البيان ، اننى انتهزت هذه الفرصة الفريدة من الفوضى وتسللت بجوار الجدران فى الظلام الى مكان الممر الاخر الذى سلكه « حيرام » ‥ ولكننى لم اجد لـ « حيرام » أثرا فتواريت فى فجوة ، ولم يطل انتظارى لما توقعته .. اذ سمعت رنينا خافتا نهض على اثره احد الخدم الستة السود ومر من امامى وانا متوار بالجدار فى الظلام وفتح بابا دخل منه الى ممر آخر وانا فى اعقابه فاذا حجرة كبيرة على بابها ستار .. وازاح الطارق ذلك الستار ، وتسللت خلفه فاذا بى فى مخدع « أتينيا » الخاص ..



الفصل الخامس والعشرون

المصابيح الوردية

وكانت حجرة المخدع واسعة يقسمها الظلام الى قسمين ، فالقسم البعيد على يدى اليمنى تضيئه مصابيح ذات سجف وردية ... وهناك كانت « انتينيا » مسترخية فوق جلد أسد ـ كعادتها ـ تدخن فى غليون من الفضة ، وعن كثب منها كأس وابريق من الفضة أيضا .. وقد أقعى « حيرام » بين قدميها وراح يلعقهما فى تدله .. اما الجانب الايسر من الحجرة ، فكان غارقا فى الظلام تماماً .. والى اليسار جنحت بسرعة ..

وفى بيوت الاهالى منذ قديم الازل فى تلك المناطق الصحراوية تقليد غريب علينا ، وهو ترك تجويفات فى الجدران على ارتفاع نحو متر ونصف عن الارض يغطى بحصير أو بساط أو ستار سميك لكى يكون نوعا من الخزانة أو الصيوان ..

واكتشفت فى الجانب الايسر تجويفا من هذا النوع ، فاختبات داخله بسرعة وقد هبط على هدوء أعصاب غريب .. لابد ان الطبيعة تزودنا به فى لحظات الخطر الحاسمة اذا توفرت لدينا ارادة الحياة

ومن مكمنى هذا رحت أجيل بصرى فى الحجرة وافحص مواقعها الاستراتيجية بثبات وحزم . وادهشنى ان اجد مخدع « انتينيا » غير مختلف كثيرا عن بقية حجرات القصر ، اللهم الا من حيث كثرة البسط الثمينة المكومة هنا وهناك ، وقطع الفراء النادرة ، وجلود الحيوانات ولا سيما الاسود ..

ورايت العبد واقفا بامتثال أمام « انتينيا » وهى تتفحصه بغضب ، وقد انحنى واضعا احدى يديه على صدره والاخرى على

راسه كعادة العبيد فى تحية الاسياد . وسمعت « انتبنيا » تقول بصوت قاطع كالسيف :

ـ كيف سمحتم لـ « حيرام » بالدخول على ؟ .. الم اقل لكم اننى لا اريد ان يعكر خلوتى احد ؟ ..

وقال العبد بصوت متذلل !

ـ لقد هاجمنا فجاة يا مولاتى ..

ـ ولماذا لم تغلقوا الابواب ؟ ..

ولم يجد الطارقى ما يقول ردا على هذا السؤال ، ثم قال وهو يتاهب للقبض على طوق الفهد :

ـ اتامر مولاتى باخراجه ؟..

وكأنما فهم « حيرام » الموقف فرفع وجهه صوب مولاته ، واخذ يزوم كالمتوسل ، فقالت للعبد :

ـ لا بأس .. اتركه وانصرف

وما كاد العبد يتأهب للانصراف حتى استوقفته « انتينيا » بالنقر بغليونها على الابريق ، ثم سألته :

ـ ماذا يفعل النقيب ؟..

ـ تناول طعام العشاء منذ برهة ..

ـ هل اكل بشهية ؟ ..

ـ بشهية كبيرة ..

ـ الم يعرب عن رغبة ؟ ..

ـ رغبة واحدة ياامولاتى هى التى نكررها فى كل مرة : أن يجتمع بزميله الضابط الاخر ..

ـ الم يقل شيئا عدا ذلك ؟ ..

ـ لا يامولاتى ..

ـ فمرت سحابة من الضيق على محيا حورية الاطلنتيد ، فصرفت العبد باشارة من يدها ..

***

واحسست بالدنيا تدور بى وانا فى مكمنى المظلم .. فـ «مورانج » اذن ليس مشغول البال عنى بغرامه وشهواته .. وانما هو يكرد رغبته فى الاجتماع بى .. ولا يبدى رغبة سوى هذه فى كل مرة .. وعدم اجتماعه بى ناتج عن سبب خارج عن ارادته .. « فانتينيا »هى

التى تمنعه من ذلك ..

مرت هـــذه الخواطر بذهنى كلمح البرق من غير ان احول نظرى واهتمامى عن « انتينيا » التى كانت أضواء المصابيح الوردية تنصب عليها ..

لم ار فيها هذه المرة الملكة المتعالية الباردة التى رأيتهـــا فى المرة الاولى .. ولم يكن فوق جبينها تاجها الفرعونى المتمثل فى الثعبـــان المقـــدس وقد خلت ذراعاها من الاساور الفرعونية .. ولـــم يكن يستر جسدها سوى قميص فضفاض ،وقد استرسل شعرها الاسود الغزير لا يعلوه غطاء فتهدل على كتفيها ونحرها ..

وكانت نظراتها شاردة بعيدة عن التعالى والسخرية ،وهى مشغولة عن « حيرام » الذى يلعق قدميها ويرفع اليها نظرات الوجد .. !

وفجاة رأيتها تنهض من مكانها ،وبحركة واحدة نضت عنها قميصها المفتوح فبدت أمام ناظرى عارية تماما كما ولدتها أمها .. وانشـــأت تخطر فى دلال صوب مرآة ضخمة من المعدن الاصفر الشـــاحب كى تتأمل محاسنها .. وحركت مرآة ضـــخمة أخرى جانبية تدور على لولب كى تبدو لها صورتها وهى عارية من جميع الجوانب . وبرفق أخذت تتحسس جدائل شـــعرها عن نحرها ، ثم تحسست مفاتن صدرها وأعطافها بأنامل كأوراق الورد، ونظراتى تنهل من كل انملة فيها، وعقلى يتلذذ بالنظر الى ذلك المشـــهد الفريد .. مشهد المـــرأة الفاتنة التى تشحذ اســـلحة فتنتها وهى تظن نفســـها بمـــأمن من العيون استعدادا لاستقبال الرجل الذى تريد ان تأسره وتستولى على حواسه وارادته

ومن المجمرات القائمة فى الاركان قرب الفراش ، كانت ادخنـــة بخور العطر تملأالجو وفيهـــا روائح من اندر وأثمن ماانتجته اسرار الشرق .. فسرى خدر هذه العطور الى اعصابى ، وانا انظر اليهـــا تتأود كزنبقة لا نظير لها فى الحدائق امام مرآتها ، وهى تتثنى وترنو الى المرآة من خلفها تارة ومن ورائها تارة أخرى .. ثم وضعت لمسات من العطر خلف اذنيها وبين نهديها ..

وسمعت وقع خطى خافتة فى الممر امام الباب من الخـــارج .. فاسرعت « انتينيا » الى مضجعها وتظاهرت بالاســـترخاء فى غير

اكتراث ، على الوضع الذى كانت فيه عند دخولى اول مرة عليها ..
وتناولت القميص المفتوح فالقته على مفاتنها حتى لا يراها العبد ..

وفتح العبد الباب ، وانحنى ولم يدخل ..

ودخل « مورانج » ..

ورأيت وجهه فى الضوء وقد اعتراه شيء من الشحوب الا انه كان هادىء الاسارير تماما ، حتى بعد أن اغلق العبد الباب ، وابعدت « انتينيا » الغلالة فبدت عارية تماما ، وقد نشر رفع الغلالة فى هواء الحجرة اذيالا من عطر « انتينيا » تسكر الانف وتدغدغ الاعصاب ..

واحسست فى هذه اللحظة اننى عاجز عن فهم « مورانج » وهو يبدى مثل هذا الهدوء الذى يصل الى حد البرود .. اذ رايته يقف شامخ الانف ويتظاهر بانه لم ير حركتها ، وهى تدعوه الى الاستلقاء بجوارها فوق مضجعها وهى عارية ! ..

ورأيتها تقابل ذلك التعالى بابتسام وتودد .. ثم قالت بلهجة ناعمة :

ــ لعلك تعجب لدعوتى اياك للحضور فى هذه الساعة على غير انتظار ؟ ..

وظل وجه « مورانج » ساكنا لا يختلج له جفن .. ورفض ان يجيب كانها لم توجه اليه كلاما ..

ــ هل اعدت النظر فى موقفك ؟ ..

وابتسم « مورانج » ابتسامة زراية هادئة وظل صامتا .. كانت ابتسامته هى كل جوابه عليها ..

ولاحظت ان « انتينيا » تبذل جهدا كبيرا حتى لا تتلاشى ابتسامتها .. واحسست انها ليست اقل من « مورانج » استحقاقا للاعجاب على تماسكها لاعصابها ..

وسمعتها تقول بعد برهة :

ــ لقد استدعيتك لاقول لك شيئا سيقع منك حتما موقع المفاجاة .. والحقيقة اننى لم ار فى حياتى كلها شبيها لك ، فأنت لم تبد منذ اول يوم سوى رغبة واحدة لم تعدل عنها ..

ولاول مرة فى هذه المقابلة سمعت صوت « مورانج » يقول بهدوء :

ــ ولم تزل رغبتى الوحيدة ان اقابل زميلى قبل ان اموت ! ..

وتنازعني شعوران طاغيان هما شعور السرور وشعور الامتنان .. السرور لان « مورانج » و « انتينيا » لم يحدث بينهما شيء طيلة هذه المدة لان صديقي ثبت في مقاومته لرغباتها واغوائها حتى فل أسلحة فتنتها جميعا .. اما الامتنان فلأنه لم يطلب قبل ان يموت ألا ان يراني ! ..

وسمعت « انتينيا » ترد عليه قائلة :

ـ ولهذا السبب دعوتك الان .. ذلك اني قررت ان ألبي رغبتك ، بل وأزيد عليها شيئا من عندي .. ولعلك تزدريني الان اذ تراني انقاد لعنادك وتمنعك وانا التي ضد الجميع بلا استثناء امام رغباتي . ولكني سأمنحك أكثر من لقاء صاحبك .. سأمنحك حريتكما .. فيكفي ان تطيعني هذه الليلة كي يتولى الصغير ابن الشيخ منذ الغد اعادتكما الى خارج اسوار الحجار . فما رأيك ؟

وابتسم « مورانج » ابتسامة مستهينة ، وقال :

ـ كي أعود على رأس فرقة من الجنود الفرنسيين مزودة بالمدافع لاقدم لجلالتك ما يليق بك من تحية ؟ ..

وانتصبت « انتينيا » واقفة ، وقد سقط قناع البشاشة واكفهر محياها وومض في عينيها بريق الغضب :

ـ اترفض وتسخر ايضا ؟ ..

ـ لقد كنت اعلم انك تقدمين الترغيب للحصول على بغيتك مني بأي ثمن .. ولكنك لن تناليها ..

وعقد ذراعيه فوق صدره ، ووقف ينظر اليها باستهانة .. فتقدمت منه في غضب وقالت :

ـ سآمر بتعذيبك حتى الموت ..

وهز « مورانج » كتفيه وقال بهدوء :

ـ انا تحت سلطانك .. ومن السهل على من يملك السلطان ان يفعل بأسراه ما يشاء .. وذلك لا يضيرني ما دمت لا انزل لك عن ارادتي !

وافلت زمام « انتينيا » فصفعت وجهه .. وزادت ابتسامته سخرية ومد يده فقبض على معصمها قبضة جعلتها تتلوى . وتأهب « حيرام » للوثوب ، ولكن نظرات « مورانج » الثابتة جعلته يرجع عما اعتزمه .. ولجأت « انتينيا » الى حيلة اخرى ، فقالت له :

ـ سآمر بقتل زميلك امام عينيك ان لم تخضع ..

ولاول مرة رايت وجه « مورانج » يصفر ، بيد أنه تمالك نفسه بسرعة وقال :

ـ ان الملازم « دى سانت افيت » جندى باسل لا يرهب الموت .. وانا على يقين من أنه يفضل الموت على حياة اشتريها له بهذه الوسيلة الدنسة .. !

ومرة اخرى رأيتها تصيح به وهى تصفعه :

ـ اخرس ! ..

وفى هذه المرة لم يتحرك ، فعادت تقول بتوسل :

ـ الا عقل لك ؟ .. الا تدرك انك لا تستمتع بالحياة الا لانني احبك ؟ ..

ـ لقد فكرت فى هذا بما فيه الكفاية ..

ـ فكر مرة أخرى .. مرة اخيرة ! ..

ـ لا فائدة من معاودة التفكير ..

ـ ليكن اذن ..

ومدت يدها الى جرسها الفضى فرنته ، وظهر عبدها الفاره فاومات اليه .. وخرج « مورانج » شامخ الراس ..



ولم أشعر الا « انتينيا » بين احضانى .. فاذا بها « انتينيا » اخرى غير الملكة المتعالية الجامحة الشهوات . .فقد هيأ لى صديقى أن أحظى بـ « انتينيا » الصبية الصغيرة الذليلة المجروحة الكرامة والكبرياء ، التى تتلهف على استرداد ثقتها بانوثتها المهدرة

لم يساورها اى عجب عندما رآتنى آثب من الظلام الى مضجعها .. بل القت براسها على صدرى وأخذت فى هالة من شعرها الاسود تمسح خديها وتمرغهما على كتفى وعنقى ، وذراعاها العاريتان الساختنان تضمان عنقى ووجهى فى رجفة لا نظير لها الا رجفة خلايا جسدى كلها، وانا اضم فى النهاية كل ذلك الكنز من الفتنة والملاحة بين احضانى ..

وسكرت جوارحى كلها من الحب فى تلك الليلة .. وخيل الى انى اسمع انسانا آخر حين سمعت نفسى اكرر بين تنهدات السرور والرضى والانتشاء :

ـ انا ملك يمينك ‥ مرينى افعل كل ما تريدين ‥ ولا تجيبنى بل تمسح بيديها على وجهى وتتخلل اصابعها شعرى ، فأرى اضواء المصابيح الصغيرة المنبثقة فى السقف تومض وتتداخل وانا اكرر بين انفاسى المعطرة بانفاسها :

ـ ملك يمينك انا ‥ مرينى افعل ولا اتردد ‥ وتلصق « انتينيا » وجهها بوجهى ، وأرى فى عينيها الواسعتين الخضراوين وميضا غريبا لايشبهه وميض اى نوع من جواهر الارض النفيســـــه او نجـــوم السماء ‥

وأرى بطرف عينى ـ عن كثب منا ـ عينى « حيرام » وقد جثم يرقبنا وهو يرسل زمجرات خافتة يعبر بها عن سعادته وهو يرى اجتماع صديقيه الحميمين فى هذه الضمات العطرة ‥

ولمحت الى جوار « حيرام » نضدا صغيرا فوقه ناقوس « انتينيا » الفضى الذى تدعو به خدمها ‥ والى جوار الجرس الفضى مطرقة من الفضة ذات مقبض من الابنوس . ولست أدرى لماذا ثبتت عيناى على المطرقة الفضية برهة طويلة قبل ان تطبق « انتينيا » على فمى مرة اخرى بفمها فى عناق ثم اعد بعده مستطيعا ان افكر فى شىء ‥ !



الفصل السادس والعشرون

الصّحوة

لم استيقظ الا فى اصيل اليوم التالى .. والفيت نفسى على فراشى فى حجرتى ، وقد استولى على ذهنى خمول عجيب ، ورحت أحاول استرجاع أحداث الليلة الماضية . وتذكرت جيدا اللذات العميقة التى نهلت منها ، ولكن شعورا غامضا بعدم الارتياح كان يختلط بذلك كله كأنما هناك شىء قد حدث لا استطيع أن آتذكره تماما . وقررت ان أنهض وأتلمس طريقى لاعرف الاخبار ما دامت « تانيت » لم تحضر اليوم الى حجرتى ..

وكنت متأكدا اننى حملت حملا الى حجرتى ، وانا نائم ، لاننى لا اذكر أننى قطعت المسافة من حجرة « انتينيا » الى حجرتى فى طريق العودة . ولابد اننى دخنت كثيرا من الحشيش معها لاننى كنت اشعر بصداع هائل يكاد يحطم جدران رأسى .. فكان لابد لى من الهواء الطلق لاسترد صوابى وحضور ذهنى .. فتوجهت الى المكتبة ووجدت المسيو « لوميج » فى حالة فرح صبيانى لوصول احدث الاعداد من المجلات الجغرافية والتاريخية . وكان يفض صفحاتها بخنجر صغير فى يده .. ولم يلبث ان تركه واندمج بين صفحات بحث راح يقرؤه بانفعال شديد ، وهو يبدى الغضب لجهل كاتبه .. فانتهزت الفرصة ودسست الخنجر فى جيبى . وهممت بالانصراف عندما استوقفنى المسيو « لوميج » فجأة قائلا :

ــ على فكرة يا مسيو « دى سانت أفيت » !

ــ ماذا تبغى ؟ ..

ــ اوه .. انت تعلم طبعا ان من مهام منصبى هنا كتابة البطاقات



وهممت بالانصراف عندما استوقفني
المسيو « لوميج » فجأة قائلا :
– على فسكرة يا مسيو «دي سانت
اليت » !

التى تلصق بالتوابيت فى قاعة المرمر الاحمر • وقد نسيت ان استعلم منذ حضوركما عن تاريخ ومكان ميلاد النقيب « مورانج » •• ثم اختفى عن ناظرى هذه المدة الطويلة فلم استكمل النقص • واراني اليوم فى حاجة الى معونتك لكتابة اللازم !

ووجدتنى اقول بكل هدوء :

ـ انا رهن اشارتك ! ••

وتناول بطاقة من البطاقات التى اعدها لذلك الغرض واستعد للكتابة •• فكتب أولا رقم « ٥٤ » ثم أمليته مكان وتاريخ مولد النقيب « جان مارى فرانسوا مورانج » • ثم كتب هو من تلقاء نفسه تاريخ الوفاة ، وأنا انظر اليه ببرود شديد •• ولما فرغ شكرنى بأدب وهـــدوء على خدماتى ! •• وانصرفت ••

وعدت الى حجرتى وجلست على فراشى افكر قليلا واحاول ان ارتب ذهنى •• ثم اخرجت الخنجر من جيبى ، ورحت افحصه واتأكد من متانة نصله ورهافة حده •• ثم فجأة قفز الى ذهنى منظر المطرقـــة الفضية ، وكيف وجدت استعمالها سهلا • وأخذت تنهال على ذاكرتى تفاصيل الجريمة بوضوح تام ••

وفى هذه اللحظة لمحت بقعة من الدماء الحمـــــــراء على كم ثوبى الابيض •• واستولى على احساس رهيب بضرورة قتل من جعلتنى قاتلا ••

كان هذا هو الخاطر الوحيد الذى استولى على بغضب وتصميم من غير ان اشعر بشىء مما ألف الكتاب ان ينسبوه الى القتلة من العذاب او تأنيب الضمير أو الندم • ووضعت الخنجر فى جيبى مرة أخرى ونهضت ، ومشيت فى الممرات المظلمة الى أن رأيت عبداً طارقيا فقلت له بلهجة آمرة :

ـ قدنى الى مولاتك لانها تريدنى ••

وصدع الرجل بالامر •• وقرب الباب النحاسى الضخم تسرب الى سمعى صوت قيثارة وغناء حزين ، ولما فتح الباب رأيت « عجيبة » تعزف وتغنى عند قدمى « آنتينيا » ومعها الجاريتان الأخريان •• اما « تانيت » فلم تكن موجودة ••

وتوقعت ان ارى الفتاة المهيضة الجناح العاطلة من الحلى التى تقلبت

بين أحضانى وتمسحت بى فى الليلة الماضية ، واذا بى أجمد فى مكانى اذ ارى امامى ملكة كاملة الابهة بتاجها وحليها الرسمية وثيابها الموشاة بالذهب ..

وابتسمت « انتينيا » ابتسامة ساخرة ، واشـــارت باصبعها فى استهانة وهى تسألنى :

ـ ما هذا الذى فى جيبك ؟ ..

وتنبهت الى ان مقبض الخنجر يبرز من جيبى ، فشهرته وكأنى اريد ان اطعنها ففزعت الجوارى .. ولكن « انتينيا » قالت ببرود وشموخ :

ـ اول من تتحرك منكن سألقيها للضباع فى الصحراء ! ..

ثم التفتت نحوى ، وقالت :

ـ لا اعتقد انك تحسن استعمال هذا الخنجر .. هل ارسل سيدة الى حجرة نومى لتأتيك بالمطرقة الفضية التى تجيد استخدامها ؟

فقلت لها بصوت كالفحيح :

ـ سأقتلك ! ..

ـ تقتلنى ؟ .. أنت تعلم ان هذا خلاف ما فى نفسك . فكيف تقتلنى وقد حان لك ان تستمتع بثمرات اقدامك على قتل زميلك ؟ ..

ووجدتنى ارتجف وأسألها وقد تركز اهتمامى فى شىء واحد :

ـ هل تألم ؟ ..

ـ ألما يسيرا .. فقد كنت بارعا فى استخدام المطرقة ببراعة تستحق الاعجاب ! ..

ـ وهل كانت الحجرة التى دخلنا عليه فيها مظلمة تماما ؟ ..

ـ تماما .. حتى اننى اضطررت الى ان اسحبك من يدك حتى الفراش الذى كان ينام فيه ..

ـ امتأكدة انت انه كان نائما ؟ ..

ـ كان مستغرقا فى النوم .. !

ـ وهل مات فى الحال ؟ ..

ـ بل بعد دقيقتين تقريبا من فرارك وانت تصرخ ..

ـ اذن فهو لم يعرف .. !

ـ لم يعرف ماذا ؟ ..

ـ اننى انا الذى ضربته .. !

ـ كان يجهل ذلك فعلا الى ان عرف !

ـ عرف ؟ .. كيف عرف ؟ ..

فنظرت فى عينى ببرود وتحد وقالت :

ـ انا اخبرته كى يعرف .. !

ـ لماذا ؟ ..

ـ وما قيمة أن يموت من غير أن يعرف .. كان فى استطاعتى ان ادع احد العبيد يقتله . ولكنى اردت ان يشعر بالهزيمة وهو يموت .. ان صديقه اقدم على قتله مستريح النفس من أجلى !

ووجدت نفسى اقفز والخنجر فى يدى .. واذا بـ « حيرام » يقفز الى صدرى ويلقينى أرضا .. ورن ناقوس فضى ، ثم امتلأت الحجرة بالعبيد الستة الذين شدوا وثاقى .. ولكننى قاومت واستخدمت كل ما أعرف من حيل الملاكمة . وهى تتفرج على المعركة بهدوء واستعلاء .. الى ان اصابنى احد العبيد بكسر فى ذراعى الايسر وقد لواه الى الخلف بعنف فأغمى على واوثقونى وحملونى وانا لا اعى ..



الفصل السابع والعشرون

خاتمة المطاف

لم افق الا على ضوء القمر يتسلل من نافذة حجرتى ويفترش ارضها .. فرأيت فى نوره شبحا أبيض بجوار رأسى عرفت فيه « تانيت » .. وتمتمت اناديها فوضعت يدها على فمى . وحاولت ان أتحرك لانهض فآلمتنى كتفى .. وجلست « تانيت » على حرف فراشى واخذت تتحدث همسا :

– انى اعرف كل ما حدث .. لا تتكلم .. فهناك حارس من العبيد الطوارق خلف الباب ..

– انقذينى بربك ..

– انت تعلم اننى احببتك منذ اول يوم .. ولكنك لم تكن تريدنى !

– آه يا صغيرتى .. لو تعلمين كم انا متعلق بك الان .. انقذينى وخذينى اليك ..

– ولماذا تظننى جئت الان ؟ لى سنوات وانا افكر فى الخروج من هنا لأعود الى قريتى الجميلة الى شاطىء النيجر .. ولكنى لم اكن استطيع الخروج من هنا وحدى وانا صغيرة ضعيفة . ولم اجد احدا ممن حضروا الى هنا يريد ان يترك هذا المكان .. كلهم كانوا مشغوفين بها . ولكنى عرفت اخيرا انك لا تحبها .. كنت الوحيد الذى حاول قتلها ، ولكنهم يا مسكين كسروا ذراعك فلا تستطيع الحركة !

وبحنان شديد مرت بيديها على كتفى المهيضة ..

– اذا كان الحارس على بابى فكيف دخلت انت ؟

واشارت بيدها الى النافذة ، ثم اتجهت اليها ووقفت على حافتها

وقطعت الحبل المدلى من اعلى الذى نزلت عليه وعادت لتقول لى :
ـ ان النافذة هى الوسيلة الوحيدة لفرارنا ..
ـ ولكننا على ارتفاع مائتى قدم ..
ـ وهذا الحبل طوله اكثر من ذلك .. لقد سرقته من الحديقة ، وكانوا يستخدمونه فى تسلق النخيل .. وهو متين جدا ..
ـ وكيف انزل على الحبل وكتفى مهيضة ؟
ـ سأساعدك .. ان ذراعى قوية ، ثم تذكر ان ذراعك الاخرى سليمة وتستطيع أن تتعلق بالحبل . وقد عقدت فيه عقدا كثيرة للاستراحة .. ثم تذكر انه ليس امامنا غير ذلك ..
سأقف هنا وادليك بالحبل ملفوفا حول رتاج النافذة ، الى أن تصل على مهل . وعندئذ سأنزل أنا على الحبل كالهرة .. فقد تعودت فى قريتى أن أتسلق الاشجار العالية الناعمة مثل اشجار المطاط لأستولى على اعشاش الطيور ..
ـ وحين نهبط الى الارض كيف نستطيع الخروج من الممرات والانفاق ؟.. اتعرفين هذه المسالك ؟..
ـ لا أحد يعرفها سوى الصغير ابن الشيخ و « انيتينيا » ..
ـ اذن ماذا نصنع ؟..
ـ ان الجمال أيضا تعرف الطريق .. وقد استوليت على أحد جمال الصغير ابن الشيخ التى قطعت معه الرحلة مرارا ، ووضعت أمامه أعشاب كثيرة كى يملأ معدته ويقوى على حملنا .. وبعد ساعة عندما يختفى القمر وراء الجبال نشرع فى تنفيذ خطتنا .. والان استرح هذه الساعة كى تستجمع قواك ..!
وتركتنى وجثمت فى ركن بعيد ولاذت بالصمت الى ان اختفى ضوء القمر وسادت الظلمة ، فنهضت فى سكون وسندتنى بذراعها ومشت معى صوب النافذة وأنا احاول ان استجمع اعصابى حتى لا أرتجف فيفتضح لها جنبى . ونظرت الى الهاوية التى ليس لها قرار ، ولكن يدها الثابتة قوت من عزيمتى وهى تقول لى :
ـ لقد ربطت الحبل جيدا حول رتاج النافذة بحيث يمكن ان يدور بسهولة . والان سأربط الطرف الاخر حول خاصرتك . وقليلا قليلا سأدلى الحبل واقف عند كل عقدة برهة كى تستجمع انفاسك.

وامسك هذه الوسادة الجلدية بذراعك السليمة لتحمى وجهك من الارتطام بالجدار .. والان هيا واعتمد على الله ..

ودست فى جيبى شيئا وهى تقول :

هذا فص لامع يرسل شررا أحمر في الليل ، متى وصلت الى الارض اخرجه فاعرف أنك سرت فى أمان ، فأشرع أنا أيضا فى النزول

ولست أذكر الا ان الهبوط استمر دهرا طويلا .. لانها كانت تتمهل كلما تدلى الحبل عشرة أمتار عند العقدة ليطول انتظارى وانا معلق فى الهاوية . وخيل الى أكثر من مرة وقدمى تلمس نتوءا فى الجدار الصخرى اننى وصلت الى الارض ، ثم اتبين خطئى . وأخيرا وصلت ووجدت اعشاب الحديقة تحت قدمى ، وفككت الحبل ثم اخرجت الفص الكبير الاحمر من جيبى وانا ممسك بطرف الحبل فى يدى .. واذا بى أسمع صوتا يقول من خلفى :

ــ انت مريض يا سيدى الملازم فدعنى أمسك لك الحبل !

وكان المتكلم الصغير ابن الشيخ !

ولم أستطع ان أقاوم رجفة استولت على ، وأنا انظر الى قامته المديدة الحالكة السواد ، وأدركت أننى هلكت أنا و « تانيت » .. وتركت له الحبل وأنا أتمنى لو انشقت الارض فابتلعتنى . وأحسست بالحبل يتموج وبعد قليل اقترب منا جسم نحيف ، ثم مد الصغير ابن الشيخ ذراعيه القويتين وحمل « تانيت » الى الارض .. فما أن تبينت الصغير ابن الشيخ حتى اطلقت صرخة مخنوقة ، واذا به يكتم فمها بيده وهو يسبها .. ثم قال لى وهو يقودها امامى بعنف :

ــ اتبعنى ! ..

وتبعته وأنا أسمع صوت أسنان « تانيت » التى تصطك رعبا ، واذا بالصغير ابن الشيخ يدخلنا كهفا صغيرا منعزلا حيث أضاء شعلة رأيت على ضوئها جملا قويا ، أشار اليه العملاق الاسود وقال :

ــ هذه الصغيرة ليست من البلاهة بالقدر الذى كنت اعتقده .. فقد احسنت اختيار أقدر جمالى على الاحتمال . ولكنها مع ذلك ساذجة فلم تستعد للرحلة بزاد أو ماء .. ولو شرعتما فى رحلتكما هكذا لهلك ثلاثتكم فى الصحراء بعد ثلاثة أيام !..

وكفت « تانيت » فجأة عن الارتجاف ، وتطلعت الى الصغير ابن الشيخ بنظرة توسل ودهشة . ولكن الطارقى تجاهل هذه النظرة وقال لى :

– الان سأشرح لك كل شيء .. لقد وضعت على جانبى الرحل قربتى ماء . وعليك أن تحافظ عليه كما تحافظ على حياتك ، فلن تعثر على بئر صالحة للشرب قبل خمسمائة كيلومتر . وقد وضعت فى الخرج طعاما محفوظا وتمرا قليلا .. لان الماء اهم من الاكل فى هذه الرحلة .. ثم ها هى بندقيتك ورصاصها ، ولكن اجتهد الا تستخدمها الا فى صيد الغزلان . ثم خذ هذا ايضا .. انها بوصلة وها هى خريطة الطريق التى ستسلكها بعد خروجك من الاسوار . فلو سلكت الطريق التى جئت منها لقبض عليك اتباع « انتينيا » قبل غروب شمس الغد . أما هذه الخريطة فتكفل لك الوصول بسرعة مع هذه الفتاة الى خارج نطاق نفوذ « انتينيا » عند وادى تلميس حيث يقيم ابناء مدين – وهم قبيلة من الطوارق بينها وبين الفرنسيين علاقات ودية كما تعلم – وهم فى حالة عداء شديد مع سكان الحجار . ومتى وصلتما الى هناك كنتما فى مأمن ، وستجدان ماء كثيرا واشجارا وجوا معتدلا . ولكن قبل أن تصلا الى هناك لن تجدا قطرة ماء .. والطريق غير مأهولة فلا يجسر احد على اجتيازها لوعورتها . ومن يضل منه جمله هناك لا يجازف بالبحث عنه .. ففرصتكما الوحيدة هى خوف اهل الحجار من تلك المنطقة غير المأهولة وتعرض سالكيها للموت ..

– انت اذن تعرضنا للموت .. !

– انها مجازفة ولكنها تنطوى على فرصة للنجاة .. فرصة صغيرة اجل ، ولكنها افضل من لا شيء .. !

– افضل من قاعة المرمر الاحمر ..

– لقد احسنت اختيار طريقك اذن . فهيا بنا وسأتركك عند مشارف الطريق المرسوم فى الخريطة ..

وفى ظلام الليل ، اخذ الصغير ابن الشيخ بزمام الجمل الذى ركبته مع « تانيت » ومضى يخترق بنا مهوات مظلمة ملتوية وانفاقا .. وبعد ساعتين لفحنا حر الصحراء ، ووقف الصغير ابن الشيخ وقال لى :

ـ اسرعا بقدر استطاعتكما كى تختفيا قبل طلوع الفجر الذى لم يبق على شروقة سوى ساعتين .. واعلم اننى بذلك ارد اليك فضل انقاذك حياتى ..

ـ الست تخشى ان احدث حكومتى بأمر « انتينيا » لترسل معى جيشا ينكل بها وبعشيرتك كلها ؟ ..

فابتسم الصغير ابن الشيخ باستخفاف وقال :

ـ ليس فى وسعك يا سيدى الملازم ان تعترف لمواطنيك بالظروف التى اكتنفت موت زميلك ورئيسك النقيب « مورانج » .. !

والجم هذا الرد لسانى .. وسمعته يقول بعد ذلك :

ـ كل ما اخشاه هو هذه الفتاة .. وكان ينبغى ان اذبحها هنا لولا انى لمست مبلغ حبها لك . وهذا خير ضمان لان تمسك امرأة لسانها وتكتم سرا ! .. وعليك أن تحرص عليها فلن تجد بسهولة اخلاصا كهذا الاخلاص ..

وحاولت ان اصافحه شاكرا ، فقال بأنفه :

ـ كيف تشكرنى وانا لم افعل ذلك من اجلك ، بل من اجلى انا كى أفى بدينى وأرد لك الجميل .. وثق اننا اصبحنا الآن متساويين . أنقذتنى مرة وها أنذا أنقذك مرة .. ولكن احذر لانك ان عدت فلن أنقذك مرة أخرى لانى غير مدين لك الان بشىء .. لن تجد عندى رحمة !

وظلت يدى ممدودة فقال ببرود :

ـ ان يدك ملوثة بدم صديق .. وانا اعلم ان مثلك تخور عزيمته بسهولة ، ولذلك اتوقع ان تعود يوما ما طمعا فى صفحة اخرى من اعطاف « انتينيا » .. ويومئذ لن تجد الرحمة عند الصغير ابن الشيخ !

فصاحت به « تانيت » :

ـ صه ! .. لا تقل هذا ! ..

ـ بل اسكتى انت ايتها الحمقاء .. سيعود بعد سنة او خمس او عشر .. ولكنه سيعود . ان الصغيرة « تانيت » تعرف ان ما اقوله حق ، ولذا فهى ترتجف خوفا .. لانها تعرف ذلك الملازم الايطالى الذى حاول الهرب وافلح فى الفرار . ولكنى بعد سنتين عثرت عليه

يبحث عن منفذ أمام الحاجز الشمالى كى يدخل الى الجنة التى هرب منها . . ان من راى « انتينيا » مرة يسرى سمهاق اعصابه ويحن اليها دائما فى ظما شديد لا يقاوم ولو كان الثمن هو الموت • وهذا الايطالى يقيم الان فى التابوت رقم «٣٩» والان انطلق ولا تضيع الوقت •• وقد اعذر من انذر !

ومضيت « تانيت » تلتصق بظهرى وتحيطنى بذراعيها • وكتبت لى السلامة بعد رحلة شاقة فقدت فيها أغلى شىء صادفته فى حياتى • فقدت فيها « تانيت » التى أثرتنى على نفسها وظلت تحرم نفسها من قطرات الماء الى ان ذوى عودها ، وهلكت قبل ان تصل الى « قبائل أبناء مدين » بيوم واحد •• !!



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي



المؤلف

* اديب فرنسى ولد عام ١٨٨٦ وتوفى عام ١٩٦٢ عن ستة وسبعين عاما ..

* تجاوزت شهرته حدود بلاده - لاول مرة - حين نشر روايته ذائعة الصيت التى عنوانها « الكونت فيليب » وزادت هذه الشهرة تأصلا بعد نشر « حورية الاطلنطى »

* كان عضوا بالاكاديمية الفرنسية .. وقد ترجم عدد كبير من مؤلفاته الى كثير من لغات العالم الحية

هذه الرواية

تعتبر رواية « حورية الاطلنطى » «L'Atlantide» أعظم آثار الروائى الفرنسى الذائع الصيت « بيير بنوا » .. وهى قمة من القمم العالمية فى قصص المغامرات القائمة على المواقف العاطفية والتشويق والحبكة الممتازة والمفاجآت المحفوفة بالمخاطر

ويمزج « بيير بنوا » فى هذه القصة بين الحقائق العلمية وبين الخيال الجامح .. حتى لقد قال بعض النقاد عنها :

ـ اذا لم تكن متأكدا من قدرتك على السهر طول الليل من غير ان تضار صحتك ، فلا تفتح هذه الرواية فى المساء . لانك لن تستطيع ان تغلقها قبل ان تتمها ، ولو طلعت عليك شمس الغد وانت تقرأ .. !

وقد ظلت « حورية الاطلنطى » رواية فريدة فى نوعها برغم اقدام الكثيرين من الكتاب فى الامم المختلفة على مجاراتها ، لانها مزيج غريب يلهب الاعصاب ويرفه عنها على التوالى ، ويستثير الفضول ولا يشبعه الا فى الصفحة الاخيرة ..